روچيه جارودي

الإرهاب الغربى

2

تعريب :
د. عبدالمسيح فلي

مكتبة الشروق الدولية

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



شارع الفتح - أبراج عثمان أمام المريلاند - روكسى القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

ذكرت مجلة كيفونيم (توجهات) التى تصدرها «المنظمة الصهيونية العالمية»، القدس، العدد ١٤، فبراير / شباط ١٩٨٢م ص ٤٩ ـ ٥٠:

.... لقد غدت مصر، باعتبارها كيانًا مركزيًا، مجرد جثة هامدة، لا سيما إذا أخذنا فى الاعتبار المواجهات التى تزداد حدة بين المسلمين والمسيحيين. وينبغى أن يكون تقسيم مصر إلى دويلات منفصلة جغرافيًا هو هدفنا السياسى على الجبهة الغربية خلال سنوات التسعينيات.

وبمجرد أن تتفكك أوصالها وتتلاشى سلطتها المركزية، فسوف تتفكك بالمثل بلدان أخرى مثل ليبيا والسودان وغيرهما من البلدان الأبعد. ومن ثم فإن تشكيل دولة قبطية فى صعيد مصر، بالإضافة إلى كيانات إقليمية أصغر وأقل أهمية، من شأنه أن يفتح الباب لتطور تاريخى لا مناص من تحقيقه على المدى البعيد، وإن كانت معاهدة السلام قد أعاقته فى الوقت الراهن.

أما العراق، ذلك البلد الغنى بموارده النفطية والذى تتنازعه الصراعات الداخلية، فهو يقع على خط المواجهة مع إسرائيل. ويعد تفكيكه أمرًا مهمًا بالنسبة لإسرائيل، بل إنه أكثر أهمية من تفكيك سوريا؛ لأن العراق يمثل على المدى القريب أخطر تهديد لإسرائيل.

من كتاب الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ـ

روچيه جارودى ـ دار الشروق الطبعة الرابعة ٢٠٠٢م.

روجيـه جـارودى

الإرهاب الغـربى

الجزء الثانى

تعريب: عبد المسيح فلى



مقدمة

منذ أن انهار الاتحاد السوفييتى، يبحث إرهابيو الغرب - الذى يحلو لإعلامه أن يسميهم بالصقور - ونكرر نحن ذلك ونردده - عن العدو الجديد الذى يوحد شعوبه ويكرس إمكانياتهم ضده.. وهل هناك ما يجمعهم أكثر من تجسيد ذلك العدو فى صورة شيطان يهدد الحضارة الغربية(*)؟! وهل هناك أفضل من الشرق الأوسط بنفطه وقدسه.. وموقعه الاستراتيچى.... وسكانه العرب والمسلمين؟ حتى أصبحت مصطلحات الإرهاب.. دين الكراهية.. والأصولية والظلامية، مترادفات للعرب والمسلمين.. وللدرجة التى جعلت من بعض كتابنا ومسئولينا رجعًا لذلك الصدى.

وإلى أن أصبح الشيخ ياسين إرهابيًا.. وهتلر.. أما شارون فرجل سلام!

كان لأولاد العم نصيب وافر فى بدء تلك الحملة واستمرارها، قاموا بها فى السر والعلانية، فى نفس الوقت الذى كاد لا يمر شهر إلا ونرى رابين أو بيريز وغيرهما على شاشات التليفزيون المصرى يخدعون الشعب المصرى وحكومته بالكلام عن السلام فى الشرق الأوسط....!

حتى أفقنا من نومتنا الأخيرة بعد حوالى عشر سنوات أو أكثر، على مشروع الشرق الأوسط الجديد.. الذى تعانى من وطأته الحكومات قبل الشعوب.

(*) منذ اكثر من خمسين عامًا، لا يتكلم ولا يكتب أحد من الغرب عن الحضارة الغربية، إلا ويؤكد أنها قائمة على أسس يهودية ومسيحية.. وأصبحت تلك المقولة بديهية.. وكل من يقرأ العهد الجديد والعهد القديم يجد اختلافات رئيسية.. تجعل تلك المقولة البديهية لا تصمد أمام أى نقد جاد.. بدءًا من الاختلاف على الذات الإلهية.. وعدم اعتراف اليهود بالمسيح.. ونظرتهم إليه على أنه ابن سفاح ملعون.. عليه الصلاة والسلام.

يرى جارودى أن الغرب سلب ونهب وقتل الآخر طوال خمسة قرون (*).. بمنهاجية مؤسسة.... تارة على أصولية دينية.. طبقًا لأخطر أساطير التاريخ الإنسانى: الشعب المختار وأرض الميعاد ومملكة المسيح على الأرض التى تشيد على دماء عشرات الملايين من القتلى (**) ... وتارة على علمانية ليبرالية.. طبقًا للداروينية الشاملة ذات البقاء للأقوى.. وأن للأعراق الأعلى حقوقًا على الأعراق الأدنى.

تتابع وتحامى استعمار الغرب للعالم فور تمكنه من ذلك.. بواسطة حكومات محافظة وعمالية وليبرالية.. متدينة وعلمانية.. رأسمالية و اشتراكية..

انطلقت بذلك حلقة العنف الشرير الأولى.. مؤسسة ومنهاجية.. فإذا هبت الشعوب للدفاع عن نفسها، أصبحت إرهابية.. جديرة بسحقها فى الحلقة الثالثة من العنف.

يرى جارودى فى قيام لاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية، رد فعل عملى ونظرى لفشل محاكاة نموذج التنمية الغربى، القائم على الاستعمار، بدعم من لاهوت السيطرة....

يحلم جارودى بعالم إنسانى جديد.. يبحث عن الغايات والأهداف الإنسانية الكبرى.. ذى تنمية تضامنية.. متعددة الثقافات.. لا تستبعد ولا تهمش أحدًا.

ويعلق آمالاً كبيرة على الشرق.. خاصة الصين والهند وإيران.. يتضامن مع لاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا اللاتينية، وصحوة إسلامية تعيد للمسلمين دورهم الأصيل، وتتجمع حولهم كلهم، شعوب العالم المحبة للإنسانية.

عادل المعلم

أبريل ٢٠٠٤

(*) يتطابق ذلك مع ما قاله ناعوم تشومسكى المفكر الأمريكى اليهودى فى كتابه «خمسة قرون وما زال الغزو مستمرًا».

(**) نرشح الكتب الآتية للقراءة:

١ - «النبوءة والسياسة» جريس هالسل - دار الشروق.

٢ - «يد الله» جريس هالسل - دار الشروق.

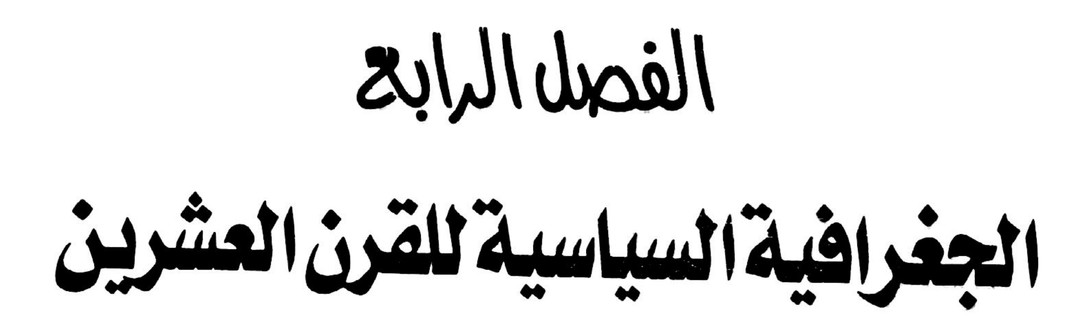
٣ - «المسيح اليهودى ونهاية العالم» رضا هلال - مكتبة الشروق الدولية.

٤ - «الأصولية اليهودية فى إسرائيل» إسرائيل شاحاك - مكتبة الشروق الدولية.

٥ - «الإمبراطورية الأمريكية» سمير مرقص - مكتبة الشروق الدولية.

٦ - «المحافظون الجدد» أميمة عبد اللطيف - مكتبة الشروق الدولية.

٧ - «الكتاب المقدس والسيف» باربارا توخمان - مكتبة الشروق الدولية.


الفصل الرابع
الجغرافية السياسية للقرن العشرين

الجغرافية السياسية للقرن العشرين

الحدث الأكثر دلالة خلال النصف الثانى من القرن العشرين، لا يعبر عنه انهيار الاتحاد السوفييتى، الذى مثل الصورة المشوهة لكل من الاشتراكية والماركسية، وإنما عبر عنه إفلاس وفشل الرأسمالية، بعد هيمنة على العالم قاربت نصف قرن من الزمان حتى يومنا هذا. واعتبر البعض أن هذا الإفلاس يقود فى أحد انجرافاته إلى حالة من الانتحار الكوكبى.

لماذا؟

لأن رأس المال تم تجميعه وتراكمه من خلال عمليات استعمارية امتدت عبر خمسة قرون، وتم تحويل هذه الاستثمارات إلى الدول الكبرى الصناعية فى أوروبا القديمة، من خلال توظيف أدوات التسويق والإعلان التى خلقت حاجات ومطالب فى هذه الدول اتسمت بأنها اصطناعية وضارة وليست ضرورية. تم توظيف هذه الاستثمارات فى شركات إنتاجية أو خدمية هدفها الوحيد زيادة تراكم رأس المال. واتسم رأس المال بسمتين أساسيتين فى سبيل تحقيق المزيد من الأرباح، هما **المضاربة والطفيلية**.

لم تستخدم الأموال فى إنتاج مفيد للبشرية، ولكن لتحقيق المزيد من تراكم الأموال.

أصبح من الواضح أن أفضل معيار كمؤشر على العمل الخلاق، لا يتعلق بالعمل الذى يخدم عملية التنمية، لكنه ذلك العمل الذى يزيد من معدل تراكم الثروات وانتفاخ «الثروة المالية» لعدد قليل من الأفراد والمؤسسات التى لا ترمى إلا إلى تزايد حجم هذه «الثروة المالية». ولم تعد مشاكل العمل والابتكار، أو حتى الحياة، تمثل أية أهمية بالنسبة لهم.

أدى ذلك إلى تأثر معانى الكلمات بالفساد الأخلاقى المنتشر، فوجدنا:

إن ما نطلق عليه «التقدم» يمثل انحرافًا أعمى يقود إلى تدمير الطبيعة والبشر.

إن ما نطلق عليه «الديمقراطية» يتمثل فى أعظم انكسار مرعب عرفه التاريخ بين من عاينوه وبين من لم يعاينوه رغم أنهم عاشوا فيه، وقد تعددت صور الانكسار المرعب بين: انتهاكات حقوق الإنسان فى الدول الغربية، حيث يزداد معدل الفقر الذى يعانى منه الفقراء، فى حين يزداد معدل تراكم الثروات للأغنياء، كما تمثل فى الحرب التى خاضتها الديمقراطية الأمريكية ضد الفقراء فى ڤيتنام .. وقبل ذلك قيام الولايات التحدة بإلقاء قنبلتين نوويتين على هيروشيما خلال الحرب العالمية الثانية راح ضحيتهما مئات الآلاف من الأبرياء، يضاف إلى ذلك الدور الذى تلعبه الديمقراطية الأمريكية والغربية الأوروبية فى تغذية الصراعات والحروب الأهلية فى الدول الأفريقية والآسيوية، ولا يجب أن ننسى أو نتجاهل أن الحربين العالميتين الأولى والثانية اشتعلتا بين دول المحور والحلفاء . . والتى ادعى كل منها الديمقراطية . . لقد قادت هذه الديمقراطيات المزيفة إلى ملايين من القتلى الأبرياء من المدنيين . . واليوم تتدخل هذه الدول فى الشئون الداخلية للدول المقهورة فى العالم الثالث بدعوى حقوق الإنسان.

إن ما نطلق عليه «الحرية» كنظام «للتبادل الحر» أو «السوق الحرة» يسمح للأقوياء أن يفرضوا قواعدهم الديكتاتورية غير الإنسانية، التى تسمح لهم بافتراس الضعفاء.

إن ما نطلق عليه «عولمة» لا يعبر عن حركة تشارك فيها كل الثقافات، وتقود إلى وحدة سيمفونية للعالم، بل على النقيض، نجد أن الانقسام يتزايد بين الشمال والجنوب، وقيام اتحاد إمبريالى يمهد إلى تدمير التنوع الحضارى وفرض أحادية ثقافية تطمع فى الهيمنة على هذا الكوكب.

جريمة أصبحت ديانة: توحيد السوق

إن ما نطلق عليه «تنمية» يعبر عن نمو اقتصادى بلا نهاية، يتزايد إنتاجه بمعدلات متسارعة بغض النظر عن كونه مفيدًا أو ضارًا، أو حتى فتاكًا وقاتلاً،

مثلما هو الحال فى إنتاج الأسلحة أو المخدرات بكافة صورها المتنوعة، هنا لا تهتم التنمية بالبشرية.

من بين العديد من الانكسارات التى عانى منها العالم، نجد البطالة التى تعنى هؤلاء الذين لم يعد فى استطاعتهم العمل، مع إضافة أن أكثر من ثلث العالم لم يعد فى مقدورهم تأمين احتياجاتهم الأساسية من أجل مجرد البقاء على قيد الحياة الكريمة، أو حتى الهجرة، ولا يعبر هذا إلا عن مرحلة تردد العالم بين المجاعة والبطالة والاستبعاد.

تجسد الخطأ المركزى الذى تم ارتكابه منذ خمسة قرون - فى ظل سيادة المجاعة، ووجه العملة الآخر من التعطش للثراء، وتعاظم دور الأدوات التى وفرت الهيمنة على كل من الطبيعة والبشر - فى أن الحياة أصبحت بدون هدف، بدون ديانة حقيقية ذات سبيل للوصول إلى أهدافها.

إن «توحيد السوق» قد ولد نوعًا من الاستقطاب المتزايد للفئة الغنية المضاربة التى قد تمتهن أحيانًا أساليب المافيا، وقد كان ذلك لأقلية قليلة العدد، فى مقابل البؤس والشقاء الذى تعيش فيه الأغلبية.

على الرغم من أن الوقت لم يضع بعد لنحيا من جديد، إلا أن تكلفة ذلك مرتفعة للغاية، فى ظل الهرج والمرج الذى يهيمن على إدارة مواردنا. **إننا لا نتحدث الآن إلا عن كيف «نتكيف»، بمعنى أن نخضع لانكسارات هذا العالم، عالم بدون إنسان، وبشر بدون مشروع، وبدون غاية أو هدف إنسانى. فى حين أن نهضة أو بقاء الإنسانية على قيد الحياة تتطلب عدم التكيف مع هذا المصير الذى يقود إلى الموت، ولكن مواجهته بصورة راديكالية.** ولن نستطيع التخلص من هذا الواقع الجبرى الاغتيالى إلا من خلال أحلامنا بغد أفضل نعيش من خلاله فى بلدان تدافع عن الآمال البناءة بعيدًا عن فساد اليوم.

بدلاً من اعتبار المنطق الاقتصادى الحالى لماستريخت واليورو واقتصاد السوق كمصير للإنسانية، علينا أن نقوم بتحطيم هذا المنطق، بمعنى آخر: العبور من منطق

المضـاربة إلى منطق الإنتـاج والإبداع الإنسـانى على المسـتـوى العـالمى ككل وليس أوروبا فحـسب، أوروبا التى كانت بالأمس استعـمارية أما اليوم فـهى مرابية نتيجة سوء استغلالها لديون الدول النامية لخدمة عملية التنمية غير الإنسانية بها.

وتسمح وسائل التدمـير المتمثلة فى السوق والذرة والصاروخ بتـحقيق وحدة تدميـر العالم، فى حين أن وسائل الاتصـال البرى والبحـرى والجوى، أو من خـلال الستـالايت والإنترنت، يمكن أن تـسمح بتـحقـيق نوع آخر من وحـدة العالم.

إن هذا المستقبل الملىء بالجراثيم، يحـتوى كذلك على فرص جديدة، حيث يولد النهـار فى الشرق هناك، حـيث برزت لأول مرة فكرة الوحـدة الإنسانـية والوحدانية الإلهية، أن تكون «واحدًا فى الـكل»: إنما يعد هذا سرًا لمستقبل ذى وجه إنسانى.

وليس فى آسـيـا فقط فكرنا أن «واحـدًا فى الكل»، ولكن آسـيـا هى التى وفرت الوسائل الروحيـة لتحقيق وإدراك هذا السر، فى الهند مـثلاً التى تحتوى على ديانات الڤيداس والأوبانيشاد والبهاجفاد والبوذية.

على الجانـب الآخر، نجد حـالة إيران التى تظهر فى «الزرادشـت» الطموح الإنسـانى العظيم للصراع بين الخـير والـشر الذى يعـبر عنه الصـراع بين الليل والنهار، ونهاية الليل وبدء قدوم النهار كرمز على انتصار الخير.

رائحة جنائزية لنهاية القرن

تعد آمـال الموتى فى العودة للحيـاة، المحكوم عليها بالموت، من عـينة آمال الاشتـراكية منذ قرن مـضى من الزمان، قرن وجـهه وأحلامه مكبلة بقـيود من الحديد والضغـوط الاجتماعيـة والاستعمارية والـفقر، قرن يطمح فيـه الفقراء المخدوعون بنسخ نموذج للتنمية من أسوأ أعدائهم، من بين من يمتهنون السياسة بصورة انتهازية وعلى استعداد لبيع كل شىء بما فيه بلدهم نفسها.

لقد انتصر حفارو القبور، هؤلاء الذين حاولوا وضع قواعد منظمة لكل العلاقات الإنسانية فى السوق، من خلال إرادات البشر والانكسارات التى مرت بها الإنسانية والسوق التى تعيش فيه. نادت هذه الفئة بما أطلق عليه «نهاية التاريخ». ولقد قاد توحيد السوق إلى موت الإنسان بعد الإله.

لقد تزايد معدل الدمار والخراب مثل تكاثر الفطريات السامة فى ظل هيمنة جماعات المافيا، وتزايد أعداد العاطلين والمستبعدين بالملايين فى الشوارع فى كل الدول، حيث «الليبرالية الشمولية» التى يقصد بها «ترميم وإصلاح الرأسمالية» التى قادت إلى تراكم الثروات لجماعة صغيرة من المجتمع والبؤس والشقاء للجماعة الأخرى وهى الأكثر عددًا.

أمل آخر مر عليه ألفيتان (ألفا سنة) من الزمان، تمثل فى رسالة يسوع المحرر، التى أضاءت سماء المسيحيين. تعد المسيحية اليوم زهرة وسط الخراب والدمار، بمحاولة إصلاح **«علم اللاهوت المرتبط بالهيمنة، منذ القسطنطينية مرورًا بمجلس الإصلاح الثلاثينى ومجلس الفاتيكان الثانى الذى يرأسه البابا يوحنا بولس الثانى، الموسوم بهيمنة الكنيسة الرومانية العنيدة»** بواسطة سيادة **علم لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية**. تمثل علم لاهوت الهيمنة فى أوروبا فى صكوك الغفران التى كانت فى أوروبا الاستعمارية وعمليات التبشير التى تمت فى أمريكا فى ظل إبادة الهنود الحمر. وقد عبر عن هذا فى كتاب تعليم الدين المسيحى المعروف باسم «كاتيشيسم». وبررت فى كومبوستل و سان دومينيك.

فى النهاية، التقليد الإنسانى العظيم لتحرير العبيد، الذى أطلقه الأب لاس كاساس والأب ڤيكتور شويشر والأب جريجوار، والزعماء غاندى ومانديلا ودوم هيلدر كامارا، تم إنكاره من جانب كنيسة ملكية -أصبحت رومانية أكثر من كونها كونية- خاصة وأنه تحرير للعبيد من الاستعمار والعبودية.

ترمى الأصولية العولمية والاستعمار فى منهجه الرئيسى إلى فرض عالم واحد له اقتصاده وسياسته وجيوشه وثقافته وديانته الواحدة، رافضين وناكرين

أى تنوع وساعين إلى تدمير الآخرين، والانتصار على الآخرين فى نهاية هذا القرن. وتتشكل الحركات الأصولية والشوفينية القومية من أكثر العناصر البشرية تعصبًا وتطرفًا.

لقد تحقق إيمان إبراهيم من خلال التضحية المقدسة، معلنًا بذلك اتحاد الله مع «كل العائلات على الأرض». هذه التضحية حل محلها قومية همجية تمثلت فى أن دولة إسرائيل حلت محل إله إسرائيل. وقد كرس ذلك عملية الغزو «للمجال الحيوى» و«التطهير العرقى» وتقسيم العالم إلى «مختارين ومستبعدين» و«صدام الحضارات» الذى أصبح مصيرًا لهذا العالم.

لقد سخر القوميون الأصوليون من قيامة يسوع و«اختياره التفضيلى للفقراء». ينتمى هؤلاء الأصوليون إلى كنيسة شمولية أصبحت إمپريالية وقسطنطينية تهيمن عليها عقلية استحواذية تجلب مشاكل هائلة تفرخ البؤس والحرب والتفرقة النوعية.

إن عالمية القرآن قد بجلت كل الأنبياء وساهمت خلال خمسة قرون فى خلط ومزج الثقافات والحضارات دون الانغلاق على تقاليد الشرق الأدنى، وعندما توقف ذلك، **أصبح الانغلاق مرضًا للمسلمين، وجاءت العصبية العمياء والقصور فى فهم جوهر الإسلام، ومن ثم جاءت جماعة «الطالبان».**

لقد أصبحت أمريكا اللاتينية فريسة لكل من تحميهم الولايات المتحدة، من پينوشيه فى شيلى إلى الأرجنتين، مستهدفة كذلك كوبا ونيكاراجوا.

وفى أفريقيا يتمتع الحكّام الدمويون بالمساعدة من الدول الاستعمارية والولايات المتحدة برغم نظم حكمهم الاستبدادية. تجسدت حالة الهرج والمرج هذه فى الجزائر ورواندا وزائير، والمقاطعة الاقتصادية للسودان وليبيا، وبخاصة الدول المهددة بالمجاعة وتفشى الأمراض المعدية.

لقد تم تخريب آسيا بعد انفجارات الأزمة المالية الناجمة عن «كرة المضاربة» فى بورصة وول ستريت، حيث القيادات التى تقترف دائمًا أبشع «الجرائم ضد

الإنسانيـة» منذ هيروشيـما حـتى إندونيسـيا والفيليـپين، ثم تجرءوا أن يقـدموا أنفسهم على أنهم المدافعون عن حقوق الإنسان فى الصين وإيران.

إن أوروپا ماستريـخت واليورو تابعة للولايات المتحدة التى تصدر عـاطليها خارج حدودها، مثل ثقافـتها المعارضة لباقى الثقافات، وتستـبعد «المنافسة» من خلال قوانين الحظر الاقـتصادى مثل قانون هلمز بروتن أو قـانون دماتو، حيث تخطط القوانين الأمريكية لأن تشرع لأمور العالم كله.

لقد حاولنا أن نبرز كيف نستطيع تجاوز أنقاض القرن العشرين، من أجل بناء قرن واحد وعشرين ذى وجه إنسانى.

يحاول هذا الكتاب التأكيد على سمو وتفوق الإنسان، وتوجيه مستقبله من خلال تغييـر نمط نظامه الاقتصـادى وسياسته ونظـامه التعليمى وإيمانه، رافـضين ومحاولين التغلب على قانون الغابة الذى يحكم نظام توحيد السوق و«الليبرالية الشمولية» التى تولد وتغـذى الأصوليـة القومـيـة وكل الأساليب العـتيـقة الـتى ينجم عنها نشـوب الحروب.

ما زال هناك وقت لنعيش.

فنحن نمتلك السلطة والمقدرة.

بعيدًا عن مصير وقدر الموت، هذه صيـاغة أولية لمستقبل بدأ فعلاً. يجب أن نشعل فيه المزيد من الجمرات من أجل خيره وتطوره.

هذا ليس كتـاب فرد أو طائفة بعينهـا، فنحن نخطو خطوة أولى لكى نقول فقط: إن موت هذا الكوكب لن يكون مصيرنا.

وهناك سؤال يطرح بقوة يتعلق بنداء يظهر فى الليل ليذكّر كل فرد بالمشاركة فى ميلاد النهار.

عالم محطم

سيكون القرن الحـادى والعشرون مسرحًا للحروب الدينـية الحادة. وسيكون الرهان على: **الانتحار الكوكبى أو قيامة الإنسانية.**

فى نهاية القرن العشرين، هيمنت ديانة واحدة فى الغرب وقادت على المستوى العالمى عمليات **توحيد السوق**.

صاغت هذه الديانة نموذجًا لكون يتم بيعه وشراؤه، وهى لا تنظر إلى الفرد إلا من منظور الإنتاج والاستهلاك.

إن توحيد السوق ينشط اليوم فى وسائل التبشير من خلال توظيف الكنائس والمعابد الجديدة ... **وسائل الإعلام** .... التليفزيون والإنترنت والكوكايين والإعلانات. فالمخدرات أصبحت بخوراً للكون كمكان مقدس تنظم العلاقات فيه من خلال القوة الاقتصادية والعسكرية، سواء كان ذلك بين الأفراد أو الشعوب.

إن هذا **العالم المحطم** بين الشمال والجنوب، وفى الشمال مثلما هو فى الجنوب، وبين من يملكون ومن لا يملكون، على أرض ٨٠٪ من المواد الخام فيها تأتى من بلدان «العالم الثالث» لكن السيطرة عليها واستهلاكها ينحصر فى ٢٠٪ من أصحاب الامتيازات فى الكون، **ولهذا فنحن نكرر كل عام الموت الناجم عن سوء التغذية أو الجوع لأكثر من ٣٠ مليون إنسان بينهم ١٣ مليون طفل (حسب أرقام اليونيسيف) مكلفة الإنسانية ما يعادل موتى هيروشيما كل ثلاثة أيام، أى بإجمالى يزيد عن ١٢٠ مثل لعدد الموتى فى هيروشيما فى العام.**

لقد أشارت جريدة واشنطن بوست إلى أنه غداة تدمير العراق، رسمت صورة رمزية ودلالية لجنكيز خان وعطيل استقت من خريطة توحيد السوق التى عبرت عن صناعة إنسانية وتضحيات بشرية من الحروب الصليبية والعمليات الاستعمارية القديمة. وأصبح **«إنسان القرن المئوى»** هو هذا الرجل العظيم الممثل فى صورة جنكيز خان.

جنكيز خان، هو الإمبراطور المغولى فى القرن الثانى عشر الذى حكم بالحديد والنار واستحوذ على ممالك كثيرة وحكم مساحة كبيرة من الكوكب.

والتساؤل الذى يطرح نفسه، هل عبـر المثل السابق على إنجازات وطموحات السياسة الأمريكية خلال النصف الثانى من القرن العشرين؟

إن هذه الديانة الشمولية لتوحيد الـسوق قد كسبت العالم على ثلاث مراحل فى القرن العشرين.

خلال آخـر حربين أوروبيتين، جاءت الولايات المتـحدة الأمريكية لمسـاعدة المنتصر.

- فى ١٩١٧م.. بعد فردان والسوم[1].

- فى ١٩٤٤م.. بعد ستالينجراد.

فى كل مرة كـانت الولايات المتحدة تأتى من أجل انتشـال المهزوم من براثن الهزيمة لتقوده إلى النصر. فى الحربين، سالت بحور من الدم فى أوروبا وجنت الولايات المتحدة المكاسب عبر الأطلنطى.

إن «الحياد» الذى اتبعته الولايات المتحدة فى ١٩١٧م أدى إلى زيادة صادراتها من ٤٣٦ مليون دولار فى عام ١٩١٤م ليصل إلى ٣٥٦٨ مليون دولار فى عام ١٩١٧م.

فى عام ١٩٤٨م كان چورچ كـينان على رأس مجلس الأمن القومى، أعلن «إننا نملك حوالى ٥٠٪ من ثروة العالم» (دراسات تخطيط السياسة، ٢٣ فبراير ١٩٤٨م).

فى عام ١٩٤٤م تقريبًا، وفرت اتفاقـيات بريتون وودز الإطار العالمى الرسمى لهيـمنة الدولار وجعله معـادلاً لقاعدة الذهـب فى المبادلات الدولية، ليـصبح الدولار العملة الدولية.

لكن هذا الثراء مقابل الخراب والدمار الذى عاشته أوروبا، فرض مشكلة لم يكن لأوروبا القدرة على تجـاوزها، حيث وجدت الولايات المتحـدة فى موقف

(١) أسماء معارك جرت فى مدينتى فردان والسوم بفرنسا.

طفل نجح فى الفوز بكل الأوراق وأصبح مضطراً إلى أن يقرض رفاقه الصغار إذا رغب فى استمرار اللعب.

هذا النوع من الضرورة تمثل فى خطة مارشال التى قامت على المساعدة التمويلية لأوروپا بهدف إعادة البناء، ولكى تصبح عميلاً مدراً للربح بالنسبة للولايات المتحدة. وقد خضعت القروض التى قدمتها الولايات المتحدة لرفيقاتها الصغيرات فى أوروپا لشروط سياسية:

١- المساعدة الأمريكية كانت مخصصة فقط «للدول ذات الأهمية الاستراتيچية بصفة جوهرية بالنسبة للولايات المتحدة».

٢- أن يتم استبعاد المعارضين: الوزراء الفرنسيين الشيوعيين تم استبعادهم من حكومة ٤ مايو ١٩٤٧م، وكذلك الإيطاليين من حكومة ١٣ مايو والبلچيكيين لنفس الشهر.

على الفور، فى ٥ يونيه ١٩٤٧م، أعلنت الولايات المتحدة رسميّاً **خطة مارشال**.

كشف هذا «الكرم» الأمريكى عن تحقيق عوائد اقتصادية وسياسية عظيمة جنت ثمارها قبل نهاية القرن، بعد أن تم تقييد أوروپا عسكريّاً فى حلف شمال الأطلنطى، والعالم اقتصاديّاً من خلال العضوية فى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى اللذين انضمت الدول إلى عضويتهما تحت قيادة الولايات المتحدة. كانت هذه هى الخطوة الثالثة لهيمنة الولايات المتحدة على العالم (بعد بريتون وودز وخطة مارشال). فى إطار هيمنة توحيد السوق، **ولقد خلقت معاهدة ماستريخت من أوروپا، أوروپا أمريكية أو متأمركة.**

لقد أشار پول مارى دولاجورس المدير السابق لمجلة الدفاع الوطنى، إلى أنه **«فى كل المجالات الخاصة بالسياسة الخارجية، لم يعد هناك مجال للسياسة الوطنية».**

فى الواقع، تتصرف الدول الأعضاء منذ زمنٍ على أنها مصدر وحدات عسكرية احتياطية يمكن للولايات المتحدة أن تستخدمها فى مغامراتها العسكرية فى العراق وكوسوفا.

على الخريطة الاقتصادية، تعتمد تجارتنا الخارجية على قرارات الحظر الاقتصادى للقوانين الأمريكية (مثل قوانين هلمز بريتون وداماتو)، وسيقع شعبنا فى مواجهة مع الشعب الأمريكى، وقد يتعرض لعقوبة الغرامات أو الأخذ بالثأر وامتصاص المنافع، فى ظل الخلاف حول الماشية المعدلة وراثيًا المستخدمة فى المواد الغذائية، كالعجول التى يتم حقنها بالهرمونات القادمة من أمريكا إلى الأسواق الأوروبية - التى يجب فتح أسواقها أمام المربين الأمريكيين - على حساب المربين الأوروبيين بدعوى تحرير التجارة.

بالنسبة لثقافتنا، فيجب عليها أن تنعم بالرضا عن استيراد وتقليد ومحاكاة الموسيقى المرضية والرسومات الموحلة البربرية للولايات المتحدة، فضلاً عن الهجمة السينمائية لأفلام هولى وود الأمريكية فى الأسواق الأوروبية. فعلى سبيل المثال، تصل حصة الأفلام الفرنسية فى المجتمع الأمريكى إلى ٠,٥٪ من إجمالى الأفلام المعروضة فى الولايات المتحدة، فى حين أن حصة الأفلام الأمريكية تصل إلى ٧٨٪ من إجمالى الأفلام المعروضة فى فرنسا من بينها ٨٦٪ أفلام عنف أمريكية.

أوروپا.. تابعة

فى أوروپا التى تشكلت من اثنتى عشرة دولة، طبقًا لأقوال المفوض الأوروبى بادريج فلين، حوالى ٥٥ مليون أوروبى من إجمالى ٣٤٠ مليون أوروبى يعيشون تحت خط الفقر.

بعد مرور قرن ونصف القرن على تحليلاته بخصوص قوانين التطور والتنمية الرأسمالية والتحقق من التنبؤات والتوقعات التاريخية لكارل ماركس، والتفنيد التراچيدى لتفاؤل آدم سميث وطموحات وادعاءات الليبرالية، يعترف المدير

التنفيذى لصندوق النقد الدولى - الذى سبب الخراب والدمار فى العالم الثالث ويمارس اليوم دورًا تخريبيًا فى دول الشرق، حيث يفرض عليهم سياسات «اقتصاد السوق» (بمعنى الرأسمالية) - يعترف فى مدينة ليل فى ٣٠ مارس ١٩٩٢م:

«ولقد أظهر النظام الذى قمنا بصياغته وتطبيقه والدفاع عنه، أنه يتمتع بقدرة عالية على خلق وتكوين الثراء وزيادة معدل التراكم الرأسمالى، دون أن يكون للجانب الإنسانى فى هذا النظام الأهمية اللازمة، وقد أصبح الفرد فى هذا النظام يعمل وفق هدف وحيد مفاده الإنتاج ثم الإنتاج لزيادة معدل التراكم الرأسمالى فى المجتمع لصالح قلة مهيمنة، حيث إننا تجاهلنا الوظيفة والبعد الاجتماعى والإنسانى لهذا النظام الذى ندافع عنه ممن خلال توظيفنا للأفراد حسب أهداف النظام».

منذ خطة مارشال وكذلك ماستريخت، أصبحت أوروبا تابعة: أوروبا متأمركة.

تم فى ثلاث مرات المناداة بنفس الصياغة وتمثل ذلك فى:

هدف «المعاهدة» يتمثل فى تنمية الاتحاد الأوروبى الغربى كوسيلة لتقوية الدعامة الأوروبية للتحالف الأطلنطى (إعلان الاتحاد الأوروبى الغربى ب ٤).

وحتى لا يخطئ أو ينخدع أحد فى تبعية أوروبا لأمريكا، تم التحديد فى الإعلان رقم (١) أن الدفاع المشترك المحتمل يجب أن «يتلاءم ويتوافق مع التحالف الأطلنطى» (الفقرة الأولى) وأن يأخذ فى الاعتبار «فى إطار الاتحاد الأوروبى الغربى والاتحاد الأطلنطى»، وأن «التحالف سيبقى المنتدى الأساسى للتشاور» (ب٤).

وفى الفقرة النهائية لمؤتمر ماستريخت، الإعلان عن العلاقات مع حلف الأطلنطى لم تدع هناك أى مجال للشك حول هذه القضية «الاتحاد الأوروبى سيتصرف لتأكيد ترتيبات المواءمة والتوافق مع الحلف الأطلنطى».

إن الهدف الأمريكى فى تحديد السياسة الخارجية فى بداية الحرب العالمية الثانية، حددها عضو مجلس الشيوخ السيناتور ترومان (الذى أصبح رئيسًا للولايات المتحدة) وصاغها كما يلى: **إذا رأينا أن ألمانيا تتفوق فعلينا مساعدة روسيا، وإذا احتلت روسيا مكان السبق والانتصار، علينا مساعدة ألمانيا.. بطريقة تقود إلى الاقتتال المستمر بين الاثنتين قدر الإمكان.**

وعادة ما تجعل الولايات المتحدة أوروبا تدفع تكاليف أو جزء من تكاليف هذه العمليات، بمعنى أن تتكلف أوروبا إطفاء الحرائق التى تشعلها الولايات المتحدة.

المهمة الأولى التى تقع على عاتق من يقفون خارجًا عن الرأسمالية، تتمثل فى تمزيق نسيج الخرافات والافتراءات المخلدة لسياسة الولايات المتحدة والشركات متعددة الجنسية واللوبى التى تستنشق الأكسچين من إرادة الهيمنة والسيطرة الدولية.

تتجسد تلك الهيمنة والسيطرة فى السياسة الزراعية التى بدأت مراجعتها عام ١٩٩٢م، وفتح أوروبا أمام غزو الصادرات الأمريكية. ولقد كان استسلام أوروبا للولايات المتحدة كاملاً فى نوفمبر ١٩٩٢م، وتجسد فى بلير هاوس، حيث زادت بعدها مساحة الأراضى البور فى أوروبا بعد أن تعاظم غزو الصادرات الأمريكية للأسواق الأوروبية.

ينعكس الحال بالنسبة للمنتجات الأمريكية التى تعانى التهديد من المنتجات الأوروبية، وأكثر مثال ذى دلالة على ذلك الفحم والحديد الصلب المفروض عليهما ضرائب إغراق فى أمريكا. كما هو الحال بالنسبة للمنتجات الإلكترونية والملاحة الجوية التى تفرض لها الحكومة الأمريكية السياسات الحمائية لكبح جماح الواردات الأجنبية. وتعزز الولايات المتحدة هذا الغزو من خلال وسائل الإعلام، وخاصة التليفزيون الذى يبث وينشر الانحطاط الثقافى الأمريكى المرتكز على العنف والمال.

فى هذا الموقف الدولى، يتمثل نضالنا من أجل الدفاع عن الإنسان، فى محاربة البطالة، والكفاح من أجل ثقافة تتطلب تحديد أهدافنا بوضوح وكذا تحالفاتنا.

تعد أكبر مشكلتين تثيران القلق اليوم: الجوع فى العالم الثالث والبطالة فى العالم الصناعى المتقدم. وبدقة يمكن الجزم أن العلاقة الارتباطية بين الاثنين قوية.

يوجد فى الجنوب حوالى ٨٠٠ مليون نسمة يعانون من سوء التغذية، وفى الشمال يعانى عشرات الملايين من البطالة، يعد الاثنان وجهين لعملة واحدة ولمشكلة واحدة، وكذا للتناقض القاتل فى النظام الرأسمالى.

بينما نتحدث عن الإنتاج الزائد/ الفائض واعتباره «كسوق»، نجد أن هذه السوق لها التزامات يجب الوفاء بها وفق قائمة أولويات تصيغها ثلاثة تكتلات عملاقة هى: الولايات المتحدة وأوروبا واليابان، والنخب المتغربة فى دول العالم الثالث. يزيد عدد مستهلكى هذا السوق عن مليارى مستهلك، والباقى الذى يصل عدده إلى ثلاثة مليارات، فالأغلبية منهم لا يمكنها الوفاء بالتزاماتها.

يعد هذا الاختلال الأساسى بمثابة إرث خمسة قرون من الاستعمار الذى دمر اقتصاديات الدول التى تم استعمارها والسيطرة عليها بعد أن فرضت على اقتصادياتها التبعية لاقتصاد الدول الاستعمارية. وخلد من هذه التبعية «النظام العالمى الجديد» الذى مثل امتداداً للنظام القديم وهيمنة قوة واحدة.

سيدوم هذا الاختلال العالمى دون أن يقدم أى حلول عملية لمشكلة البطالة أو الجوع. ولن تجدى التنمية فى التقليل من أعداد العاطلين المتزايدة. فمنذ عشرين عامًا لم تخلق هذه التنمية وظائف جديدة تستوعب العاطلين الجدد.

منذ نهاية السبعينيات من القرن الماضى، لوحظت فترة من التوسع الاقتصادى ميزتها ثلاث ظواهر جديدة ظهرت على النحو التالى:

أولاً: حالة إشباع نسبى للأسواق - حتى القائدة منها - ولم يسمح التجديد فى السوق بزيادة القوة العاملة المنتجة.

ثانيًا: على محور الإنتاج: الإنتاجية والتنافس.

ثالثًا: الاتجـاه نحو «اللامحليـة» فى صالح «الاندماجـات» التى حدثت بين الشركات العملاقة مما زاد من حدة مشكلة البطالة.

إذن، فمن الخطأ القول بأن التنمية الشائهة يمكن أن تمتص جزءًا من البطالة، بل على النقيض ستزيدها. كما أنها ستزيد من حدة التنافسية.

تظهـر الإشارة بوضـوح فى الكتـاب المهم لأحد أبرز المـدافعـين عن النظام الأمريـكى إدوارد ف. لوتواك عن «ميـلاد الرأسمـالية». فـفى الصفـحة ٨٨، يتحدث لوتواك عن «تـخفيض القوى العاملة على كل المـستويات، من خطوط التجميع وحتى مكاتب الدراسـات والخدمات الإدارية، حيث نجحت بوينج فى التـخلص من ٤٥ ألف مـوظف فى الفتـرة ١٩٩٢ - ١٩٩٦م. ولاحظ وول ستريت جـورنال أن خفض نفقات الإنتـاج صاحبه نمو وزيادة فى المبـيعات فى سوق الطيران المدنى الذى يتمتع بإمكانات نمو هائلة».

فى وول ستريت، سجل سعر سهم الشركة ارتفاعًا كبيرًا، وفسر المتخصصون هذه الزيادة: بالإدارة الفعالة لبوينج وسياسة تسريح العمالة!

فى صفحة ١١٢، أشار لوتواك إلى أن شركة تم تأسيسها، قد خلقت العديد من الوظائف، إلا أن سـوء الإدارة يمكن أن يكون بمثابة مـدافع موجـهة إليـها ويكون محـكومًا عليهـا بالفشل، حـيث سيكون عـائدها قابلاً للهـبوط. وفى صفحـة ١١٤، قال إنه «من الواضح أن رأس المال يمكن أن يثمـر عندما يكون الإنفاق على الوظائف ضـئيلاً». وفى صفـحة ١٠٠، أوضح أن «وجود نفاية اقتـصادية ينجم عنهـا عاطلين، يفسـر لنا ارتفاع مـعدل الجريـمة فى الولايات المتحدة وخاصة فى المدن الكبيرة التى عادة ما يطلق عليها: مناطق خطرة». فى صفحـة ٢١، قال إنه «هناك ٦٠ مليون أمـريكى من ذوى الفرص القليلة ومن بين من فقـدوا وظائفهم فى مـجال الخدمـات والصناعة، يضطرون إلى قـبول وظائف موسـمية مؤقـتة بمرتبات متـدنية فى مجالات البـيع والحدائق والمطاعم

ونقل وتفريغ البضائع أو النظافة. إن هذه الحركة نحو القاع والاستبعاد من عالم العمل وطبقة البروليتاريا، يشكل ممثلوها كتائب عظيمة من نحو ١,٨ مليون أمريكي يدخلون السجون حسب الإحصائيات الحديثة». يضاف إليهم قرابة ٣,٧ ملايين تم الإفراج عنهم، ولكن حريتهم مشروطة (تحت المراقبة، أو فى انتظار صدور حكم نهائى). ويصل إجمالى الأمريكيين المتهمين بجرائم إلى ٥,٥ ملايين شخص، وهو معدل يزيد عن مثلى ما كان عليه عام ١٩٨٠م.

في صفحة ٨٦، أوضح أنه «فى عام ١٩٩٥م، بلغ عدد الأمريكيين الذين وضعوا تحت الرقابة القضائية حوالى ٤,٩ ملايين أمريكى، وحوالى ٢,٨ مليون مدانين ومحكوم عليهم بعقوبات مع وقف التنفيذ، ونحو ٦٧١ ألف تحت المراقبة، وحوالى ٩٥٨,٧٠٤ فى سجون الولايات، وحوالى ٩٥,٠٣٤ ألف فى السجون الفيدرالية، وحوالى ٤٤٦ ألف فى السجون المحلية». وبمقارنة هذه الأرقام بإجمالى تعداد السكان الأمريكيين من رجال ونساء وأطفال على حد سواء، سنجد أن مواطنًا لكل ١٨٩ مواطن قد أمضى فترة خلف القضبان. وتمثل هذه النسبة زيادة كبيرة عن النسبة لعام ١٩٨٠م التى كانت واحدًا لكل ٤٨٠ مواطن، وارتفع الرقم خلال النصف الأول من عام ١٩٩٧م ليصل إلى ٥,٥ ملايين.

لم يصب الأمريكيون بالصدمة نتيجة هذه الجرائم الوفيرة والدائمة التى نجم عنها ٨ ملايين حالة سرقة بسيطة، و٣ ملايين حالة سطو، و١,٦ مليون حالة سرقة سيارات، ومليون حالة اعتداء مسلح، و٦٣٩ ألف حالة نصب واحتيال، ١٠٢ ألف حالة اغتصاب، و٢٣ ألف حالة قتل.

أحصت المباحث الفيدرالية (مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI) حالة قتل كل ٢٢ دقيقة، وحالة اغتصاب كل خمس دقائق، وحالة سرقة كل ٤٩ ثانية، وحالة اعتداء كل ٣٠ ثانية،وحالة سرقة أو سطو كل ١٠ ثوانٍ.

ينصح هذا الخبير الاقتصادى البارز فى حديثه عن الشركات العامة والخاصة فى الصفحة ١٩ من كتابه بالتالى: «العالم بأكمله محكوم عليه بالتكيف على المدى القصير جداً، مع النموذج الاقتصادى الجديد الذى تم ابتكاره فى الولايات المتحدة».

ومن الآن، حاول رجال الأعمال الفرنسيون، على مستوى الشركات العملاقة، التكيف مع هذا المفهوم.

وفى جامعة ميديف، أعلن حديثًا چان بواسونا، وسط تصفيق رجال الأعمال، أنه «لا الوظائف ولا التقدم الاجتماعى يمثل هدفًا للشركة» وزايد رئيس جمعية رجال الأعمال البارون إرنست أنتوان سيلبير فى حديثه مشيراً إلى أنه: «من الطبيعى بالنسبة لشركة كبيرة أن تخفض من عمالها بنسبة ٣٪ سنويًا».

خطاب ثناء للفساد

يعد الفساد من أسس النظام. وقد أكد هذا صراحة أنصار «اقتصاد السوق» فى مختلف أرجاء العالم.

فى فرنسا على سبيل المثال، آلان كوتا فى كتابه «الرأسمالية فى كل حالاتها» عرف منطق هذا النظام فى «صعود الفساد والأنانية التى تدفع الأنشطة المالية والإعلامية. حيث تتيح بعض المعلومات، فى مجال العمليات التمويلية من كل نوع، وتحديداً العمليات الخاصة باقتناء الأسهم والسندات التى تقود إلى تحقيق ثروات ضخمة فى بضع دقائق، ثروة لا يمكن لأى عمل جاد أن يحققها طيلة حياة كاملة، حيث إن عمليات البيع والشراء يصبح من المستحيل مقاومتها».

أضاف المؤلف أن «الاقتصاد التجارى لا يمكن بلوغه إلا من خلال تنمية حقيقية للسوق. **ويلعب الفساد دوراً مهمًا فى تحقيق بعض الأهداف التى يتم صياغتها والتخطيط لها فى هذا الاقتصاد**».

فى ألمانيا، فى كتابه المعنون «فن الفساد العظيم» يكتب هورست إبرهارد

ريشتر أن «**من يريد أن يحكم عليه أن يمارس الفساد، والتفاعل بين فن الفساد والخضوع للفساد يخلق ويحفظ ويحمى النظام**».

ثم يضيف «**في السياسة، لا يوجد مكان للضمير؛ لأن هذا يعنى غياب القدرة على التحرك**». بعد ذلك يؤكد ريشتر أن غسيل العقل يمكن أن يتم من خلال التليفزيون، قائلاً إن «التليفزيون يوظف بطريقة ملائمة، سواء كأداة رائعة للفساد العقلى، وكواقع لسنا فى حاجة لتدريسه للنخبة السياسية».... سمحت «النيابة العامة الإيطالية» بتمويل غير مشروع يقدر بنحو ٦١٩ مليار ليرة (حوالى ٢ مليار فرنك)، خلال السنوات الخمس الأخيرة كدفعات تم تحويلها إلى البرلمانيين (اللوموندو، ميلانو، أكتوبر ١٩٩٤م). هنا نستطيع أن نفهم أن المقولة التى نحن فى إطار الكتابة عنها تسمى:

فى القرن الحادى والعشرين، من سيكون إلهك؟

إن حكم الأقلية (الأوليجاركية) يرمى إلى تدمير كل ما هو إنسانى، أو ما يمكن تسميته بصورة أخرى مقدساً داخل الكائن البشرى، ليس فقط من خلال اللهث وراء الثروة، ولكن من المضاربة. فلم يعد للنقود دور مهم لأن تلعبه من خلال الاستثمار لإنتاج ما نحتاج إليه بصورة ضرورية، ولتوفير أسباب الرزق والحياة الكريمة ... **ولكن تستخدم النقود فى إنتاج المزيد من النقود.**

موريس إلياس (الحائز على جائزة نوبل فى الاقتصاد) مستنداً على معطيات بنك المعاملات الدولية، ذكر أن «التدفقات الاستثمارية ورءوس الأموال - التى توجه للمضاربات - ترتفع فى المتوسط لتصل إلى ١١ مليار دولار يومياً، بما يعادل ٤٠ مرة قيمة التدفقات المالية اللازمة لتسوية المعاملات التجارية للإنتاج، وهذا النظام لا يمكن الدفاع عنه» (المصدر: موريس إلياس: الغرب على حافة الكارثة، مقابلة بجريدة ليبراسيون ٢ أغسطس ١٩٩٢م، وكتابه «أخطاء ومفترقات طرق البناء الأوروبى، ١٩٩٢م».

تسمح الإنترنت بالتعرف كل دقيقة ليلاً ونهاراً على أسعار صرف العملات

وأسعار المواد الخام، والقيام بعمليات البيع والشراء فى عالم افتراضى دون القيام بأى عمل إنتاجى. **كيف نسمى هذه النقود المكتسبة بدون عمل؟** أترك لكم اختيار الكلمات، لكنى ألقب ذلك بالخائن والحقير الهارب لكل من يعرف ذلك ولم **يقم بمعارضة هذا النظام.**

أترك لكم حرية التفكير لتحديد كلمة فى قاموس روبير، «المضاربة»: «عملية مالية ترمى إلى تحقيق الربح من خلال الاستفادة من تقلب الأسعار فى السوق لتحقيق الأرباح».

إذا فتحت نافذة صغيرة تنتج الأكاذيب تسمى التليفزيون، فستجد نفسك تستمع إلى أن **«البلد فى حالة طيبة» بغض النظر عن أحوال ملايين العاطلين والأشخاص الذين بدون مأوى أو سكن ثابت ومن يعيشون تحت خط الفقر، وارتفاع معدل الجريمة لشباب مضطرب، المهم أن البورصة فى حالة جيدة، حيث إننا نضارب على القيم الخيالية للأسهم بدلاً من الاستثمار فى الاقتصاد الحقيقى الذى يخلق فرص العمل ويزيد من إنتاج السلع الأساسية ولا يرمى إلى تحقيق أرباح المضاربة.. هنا ندخل فقط فى حسابات التنمية الحقيقية.**

فعندما تتحقق «التنمية» تتحسن أحوال الدولة من الأفضل للأفضل.

المخدرات: بخور «توحيد السوق»

فى الولايات المتحدة، تم ضبط ٥٧ حالة عام ١٩٦٤م، و١٠١ حالة عام ١٩٦٥م، من حالات التوقيف نتيجة استخدام المخدرات أو ترويجها. وزادت هذه الحالات لتصل إلى ٦٦ ألف حالة إيقاف عام ١٩٩٢م. هذه الزيادة المضطردة خلال خمسة وعشرين عامًا شهدت أيضًا زيادة مضطردة فى استهلاك التبغ بمعدل الثلث، واستهلاك المهدئات بنحو ستة أمثال، وتزايد استخدام المخدرات بمعدل ٦٠٠ مرة.

لقد تزايد كذلك استخدام المخدرات فى فرنسا مثلما حدث فى باقى أوروبا.

وزاد من حدة ذلك تعاظم الرغبة فى الهروب، وخاصة لدى الشباب من مجتمعاتهم. فى عام ١٩٨٨م، قدر المعهد الوطنى للصحة والبحث الطبى عدد حالات إدمان السموم والمخدرات بنحو ١٨٠ ألف حالة.

يزداد الموقف ترديًا فى الولايات المتحدة، فحسب إحصائيات ١٩٨٨م، فقد بلغ عدد من تعاطوا المخدرات فى الشهر حوالى ٢٣ مليون أمريكى. فى نيويورك تم رصد ٦٠٠ ألف حالة مخدرات. كما تم رصد وجود علاقة بين المخدرات والعنصرية والبطالة التى تخلق وتوفر المناخ والأرضية اللازمة لارتفاع معدل الجريمة.

فى عام ١٩٩٠م، استهلكت الدول الأعضاء فى الجماعة الأوروبية المشتركة ٦٧ طنًا من الكوكايين النقى، وحوالى ٣٢ طنًا من الهيروين (جريدة لوفيجارو فى ٦/ ١/ ١٩٩٢م).

يبدأ الشباب عادة فى تعاطى المخدرات خلال المرحلة العمرية المبكرة من ١٤-١٦ عامًا (والأقل من ١٣ عامًا يمثلون نسبة ٦,٥٪ من حالات التعاطى). وتصل نسبة تعاطى الحشيش إلى ٥٦,٤٪ من المواد المخدرة التى يتم تعاطيها، ونحو ١٨,٤٪ تعاطى كحوليات، و٤,٣٪ لتعاطى الأدوية، ونحو ٣,٥٪ لتعاطى المذيبات. ويلجأ من بلغ ١٨ عامًا إلى تعاطى المخدرات «القوية»، (المخدرات فى المدرسة، ى. لود، ص ٤٥).

لقد تم رصد ٣ ملايين حالة لتعاطى المخدرات بصورة مزمنة فى الولايات المتحدة، ونحو ٢٠ مليون حالة للتعاطى الموسمى فى المناسبات.

لقد أصبحت المخدرات بخور الكنيسة الجديدة القائمة على توحيد السوق.

لقد تم رصد فرنسى لكل خمسة فرنسيين فى الفئة العمرية من ١٢-٤٤ عامًا قام بتدخين أو يدخن الحشيش. خلص إلى ذلك تحقيق قامت به مؤسسة سوفريس للدراسات الميدانية فى الفترة من ١٢-١٦ مايو ١٩٩٢م (ونشرت نتائجه فى اللوموند فى ١/ ٦/ ١٩٩٢م).

لقد وصل عدد المستهلكين بصفة منتظمة للحشيش والماريجوانا نحو مليون متعاطٍ فى فرنسا. وقدرت مؤسسة سوفريس لاستطلاعات الرأى «أن عدد المدخنين الموسميين فى المناسبات يصل إلى ٥ ملايين مدخن للمخدرات» (اللوموند فى ٤/١/١٩٩٤م).

وتمثل أوروبا نحو ١٩٪ من حصة سوق المخدرات العالمى للحشيش ومشتقاته، مقابل ٨٠٪ فى الولايات المتحدة، و١٪ من حصة السوق العالمى تمثلها باقى الدول.

«اليوم، يشغل اقتصاد المخدرات مكانًا استراتيجيًا فى الاقتصاد العالمى نتيجة أهمية هذا السوق ذى النمو المتزايد للطلب» (سوق المخدرات، ص٨٩).

«ويقوم المتاجرون فى سوق المخدرات بعملية «غسيل» المبالغ الضخمة التى تم توظيفها والحصول عليها من تجارة المخدرات. وقد تم رصد حالات تواطؤ فى النظام المصرفى الدولى لتسهيل عمليات غسيل الأموال، وخاصة فى الدول التى أطلق عليها «بلاد الجنات الضريبية» (سوق المخدرات، ص ٩٠ - ٩١).

«الإنتاج والتسويق بالمعنى الاقتصادى للمخدرات ومشتقاتها يعدان من الأمور الإبداعية التى تهم المؤسسات المصرفية» (المصدر السابق، ص٩٤).

«إجمالى مبيعات سنوية تقدر بنحو ١,٦٠٠ مليار فرنك، لتجارة المخدرات، بلغت أرباحها نحو ٥٠٠ مليون فرنك. فى حين أن ميزانية فرنسا تقدر بنحو ١,٢٠٠ مليار فرنك، ويعنى هذا أن الأرباح الناتجة عن تجارة المخدرات تعادل ما يقل بعض الشىء عن نصف الميزانية الفرنسية» (عالم المخدرات، ١٩٩٤م، ص٩٠٨).

«تستخدم أداة الدعاية كسلاح لنشر عدم الاستقرار أو الهيمنة، تكشف كذلك المخدرات عن سياسات القوى العظمى المدمرة، أحيانًا من خلال توظيف هذا السلاح» (المخدرات والعلاقات الدولية، كتاب الأوليفيه بروى، ١٩٩١م، ص١٩٥).

والمثال الواضح الذى يكشف ترميم وإصلاح الرأسمالية يتجسد فى روسيا

وحالة انتشار المخدرات فيها، حيث أعلن مدير مكتب مكافحة الأنشطة المخدرة ديمتـرى فيتش روشتـيشين أن «المخـدرات فى طريقها لأن تنتـشر فى كل دول الكومنولث السوفييتى وكذا أقاليم الاتحاد السوفييتى سابقًا، حيث إن ١٤٪ من تعداد السكان تهـمهم المخدرات بصفـة منتظمة أو موسمـية كمتـعاطين أو كمنتجين أو سماسرة وباعة متـجولين، أو من يقومون بعمليات غسيل الأموال الناجمة عن تجارة المخدرات».

فى أوزبكستان، تعلن الشرطة أن المساحات المنزرعة بالخشخاش تفاقمت ستة أمثال مـا كانت عليه: حوالى ١٥٠ هكتار عـام ١٩٩١م، وحوالى ألف هكتار عام ١٩٩٣م.

وتتـعدد زراعـات الخـشخـاش فى منطقـة تشرنـوبل بعشـرات الآلاف من الهكتارات. كـما يزرع الحشـيش البرى فى وادى تشو فى كـازاكستـان، وكذا توجد زراعات الأفيون المروى فى أوزبكستان وطاجكستان (المصدر: إمبراطورية المخدرات: روسيا وأسـواقها، كتاب لديمترى دوكـشكو وألكسندر داتسكفتيش، ١٩٩٤م).

الموت كلعبة طفل

تنتشر حاليًا العديد من ألعاب الكمبيوتر المطورة والمعتمدة أساسًا على العنف.

وقد قـام الكولونيل ديفيـد جروسمـان بتدريس علم نفس الـقتلة، وأوضح لذوى القبعات الخضراء والعملاء الفيـدراليين، أن فاعلية هذه الألعاب وأهميتها تكمن فى التدريب العسكرى لمن يتعاطاها.

حصلـت كذلك القـوات البحريـة على حقـوق استخـدام لعبـة الدوم على الكمـبيـوتر التى تستـخدم فى التـدريبات الفـنية للجيش، واختـيـر جهـاز سوپرنينتيندو. تبدو أحدث التقنيات بهذه الألعاب مثيرة وجذابة مثلما حدث مع الغزو الكبير للعبة بوكى مون (تعبير مختصر للمعنى الشعبى «للوحش الذى يتم تسكينه واستخراجه من الجيب»). وتستخدم هذه الألعاب بواسطة أطفال، يزداد احتمال تأثرهم بهذه الألعاب بدءًا من تسع سنوات.

تقوم أساسيات هذه الألعاب على تشكيلة من المنتجات التى تقوم بالقتل بصورة حديثة تختلف عن الصورة التقليدية للجيوش، حيث يستخدم لهيب النار، والرعد الاصطناعى، والصدمات الزلزالية، والموجات المغناطيسية، وغيرها كتدريبات على المعركة والعدوان وتدمير العدو أيّا كان.

يحب الطفل فى سن ٦ سنوات هذه اللعبة؛ لأنه «يدخل المعركة، وباستمراره فيها تزداد قوته لدرجة تمكنه من تحطيم وهزيمة أى عدو. على سبيل المثال، يجب تدمير الفقير لأنه سيصبح فى المستقبل سارقًا أو قاتلاً».

قام تلميذ أمريكى بقتل العديد من التلاميذ ومدرسه داخل الفصل، وباختبار وفحص قوات الشرطة لجهاز الكمبيوتر الخاص به، تبين أن هذا التلميذ كان مفتونًا بلعبة الدوم «مصير الموت». لعبة تتلخص فى الانتقال من هدف إلى آخر مع القيام بإطلاق الرصاص على الأعداء تباعًا وبسرعة، ومركزًا بالتحديد على إصابة الرأس.

إن ألعاب الكمبيوتر العدوانية يمكن أن يتم إعادة إنتاجها فى واقع الأطفال بعد تأثرهم الذهنى بما يدور فى اللعبة، اعتقادًا منهم أن ما يحصلون عليه من لذة ومتعة قتل الناس فى اللعبة، يمكن أن يتضاعف فى الواقع! . فاللعبة تتكون من أشخاص، على الولد الذى يلعب أن يطلق النار عليهم، فيطلق النار على رءوس خمسة أشخاص، وعلى صدر ثلاثة منهم، أى أنه ينجح فى إصابة ثمانية أشخاص مستخدمًا ثمانى رصاصات، وهذا الإنجاز لا يستطيع أن يحققه حتى رامى محترف عسكرى أو شرطى على أعلى تدريب.

فى لعبة البوكى مون يكفيك الضغط على زر لتحقق الانتصار دون أى خسائر لديك، مثلما هو الحال فى تدريب الجيش الأمريكى. . إنه الموضوع الأساسى «لأفلام الرعب».

إن أولياء أمور البنات الصغيرات الثلاث المقتولة حسب سيناريوهات مشابهة فى «بادوكه» قد رفعوا دعاوى ضد الشركات التى حولت الأطفال إلى ماكينات قتل صغيرة، حيث اتهموا اثنتى عشرة شركة، من بينها الشركات المنتجة لأفلام تايم وارنر وپولى جرام فيلم انترتينمنت، بالتحريض على القتل.

إن غالبية أفلام العنف والرعب التى يقدمها التليفزيون الفرنسى يتم استيرادها من الولايات المتحدة، فمن اليسير التحقق من أن البرامج والإعلانات تنشر ثقافة العنف والرعب من خلال عرض قصير.

تقوم بهذا شركات على درجة عالية من التنظيم، وترمى إلى التأثير على البشر - وخاصة روحيًا - لترجمة التدهور الأخلاقى من خلال استغلال أوقات الفراغ والهوايات الفنية. ويعد العنف من الأمراض المتوطنة فى هذه المجتمعات ويمارس على نطاق واسع خاصة بين أوساط الشباب.

لقد أنشأ الدكتور رلمان مع أصدقائه هايت وأشيورى عيادات مجانية «الهزة الطبية» التى تعنى تنظيم طبى يهدف إلى علاج الإصابات خلال حفلة موسيقية لموسيقى الروك. وقد وصف الدكتور رلمان نشاطه من سان خوسيه، بكاليفورنيا على النحو التالى:

فريق اللارسن يجعل الأقدام ترتجف من الحركة فى استاد كرة السلة لجامعة الولاية، فى هذه الحفلة لموسيقى الروك الصاخبة، نغمات الجيتار تشبه ضربات المطرقة، والأرض تهتز من صخب الموسيقى كما لو أن إعصاراً قد اجتاحها، والشباب يتمايلون كل واحد مقابل الآخر.

فى أحد دهاليز الاستاد يستخدم زوج من «القفاز» المصنوع من الكاوتشوك، ويبدأ فى علاج وتدليك الأجزاء المصابة. ها هو شاب فى العشرين من عمره مفتول العضلات، ولكنه مصاب بجرح فى الجمجمة. كما أن عظمة بذراع شاب ثان يبدو أنها مكسورة. وشاب ثالث يرتدى قميص المعهد الفيدرالى التصحيحى، وشاب رابع يعانى من جرح مقطعى أسفل العين اليسرى.

الدكتور ديف، كما يقدم نفسه إلى مرضاه الجدد على أنه «دكتور الروك»، يعالج الكدمات والأعضاء المصابة فى جسم الإنسان خلال حفلة لموسيقى الروك «يمكن علاج الالتواء والأنف المكسور والجروح الخطيرة للرأس»، (التضامن الجديد، ١٤ - ١٩ أكتوبر ١٩٩٣م).

إن ما يمارسه رجال الشرطة من قمع للمواطنين إنما هو نتاج الأخلاقيات الفاسدة المستوردة من الولايات المتحدة التى بدأت تنتشر فى العالم بأكمله.

وتتبع أوروبا - مع بعض التأخير - النموذج الانتحارى لهذا العملاق الضخم القائم على أرجل من الصلصال.

إن تزايد استخدام وتعاطى المخدرات فى فرنسا، مثلما هو الحال فى باقى أوروبا، نجم عن تزايد الرغبة فى الاغتراب والهروب من المجتمع.

إن الأمر لا يتعلق بمشكلة سياسية فقط، بل بمشكلة تتعلق بغايات وأهداف المجتمع كوحدة واحدة، وكذا للإنسانية المهيمن عليها بواسطة توحيد السوق حيث العلاقات الإنسانية والشخصية أو الدولية قد تم تنظيمها بواسطة قوانين السوق.

المشكلة فى الأساس أخلاقية ودينية، حيث إننا قد ركزنا تفكيرنا على المشكلة الأساسية الخاصة بالإيمان وهى: **من يكون إلهك؟**

يتطلب حل مشكلاتنا إعادة إحياء وتفعيل الإيمان الذى يمكنه أن يوحد بين الديانات **بدون استبعاد**، وبدون ادعاء أن أحدها يملك فرض عقائده وطقوسه على جميع الآخرين.

وقد أعلن مدير البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة السيد چيمس جوستاف سبيث فى عام ١٩٩٦م، أن ١,٦ مليار نسمة يعيشون فى ظروف أسوأ عما كانوا عليه فى بداية عام ١٩٨٠م. وأضاف أنه خلال جيل ونصف جيل زادت الفجوة بين الفقراء والأغنياء.

فى بداية الستينيات، كانت الفجوة من ٣٠ : ١ بين ٢٠٪ الأكثر ثراءً فى العالم، و٢٠٪ الأكثر فقراً. بلغت الفجوة عام ١٩٩٩م، ٦٠ : ١. ويضيف أن «الخصخصة وتحرير الاقتصاد كمفاهيم قائدة تعبر عن حالة الليبرالية التى شهدها نهاية القرن الماضى تدعم التنمية». لكن كما يقول: «سيصاحب هذه التنمية معدل فقر عال، ولا مساواة واضحة، وبطالة مرتفعة».

إن هذا التفكيك المادى والأخلاقى للعالم، مثاله الولايات المتحدة الأمريكية التى بدأت تاريخها بعمليات «**التطهير العرقى**» للسكان الأصليين من الهنود الحمر. ثم استرق بعد ذلك المجتمع الأمريكى زنوج أفريقيا أكثر من قرن من بعد «**إعلان الاستقلال**» مع ممارسة سياسة التمييز العنصرى حتى أيامنا هذه. ويلاحظ أن حكم الإعدام نادرًا ما يطبق فى الدول التى نطلق عليها متحضرة، فى حين أن الولايات المتحدة لا تزال تطبقه وتأخذ به.

فى عام ١٩٩٤م، نفذت الولايات المتحدة ٢٨٠ حكم إعدام (أحيانًا يتم تجميع الحالات التى سيطبق عليها الحكم بالإعدام، ليتم تنفيذها فى نفس اليوم) (لوموند فى ٣ يناير ٢٠٠٠م).

يذكر أن الحاكم السابق لولاية تكساس چورچ بوش - الرئيس الأمريكى الحالى - قد أصدر قرارات لتنفيذ حكم الإعدام على عشر حالات فى يناير ٢٠٠٠م، وعلى نحو ١٦٩ حالة كحاكم للولاية... بعد كل هذا تم انتخاب هذا «السفاح» رئيسًا للولايات المتحدة.

لقد أودى تعدد الأخطاء القضائية بحياة العديد من الأبرياء. رصد المعنيون من الباحثين فى هذه القضية نحو ٧٢ حالة براءة بعد تنفيذ حكم الإعدام عليها!!

وتتفاوت قدرة المتهمين المالية على دفع أتعاب المحامين، نتيجة الفوارق الاجتماعية الكبيرة التى تغلب على المجتمع الأمريكى. كما أن تنفيذ أحكام الإعدام يختلف من ولاية لأخرى حسب النظم والقوانين التى تأخذ بها كل ولاية. وتتعدد صور تنفيذ الحكم بالإعدام: الإعدام بالتيار الكهربائى، أو فى غرف الغاز، ويتم أحيانًا تصوير حالات تنفيذ حكم الإعدام لتسلية المشاهدين.

رصدت الإحصائيات أن حوالى ثلثى الحالات التى حكم عليها بالإعدام فى الولايات المتحدة قامت بتقديم طلب لنقض الحكم الصادر من خلال الاستئناف. وأوضحت دراسة قام بها باحثون بكلية الحقوق بجامعة كولومبيا،

ونشـرت يوم الاثنين الموافق ١٢ يونيه ٢٠٠٠م، أن غـالبيـة الأحكام الخـاصة بالإعدام، تقدم المدانون فيها بطلبات استئناف فى الفترة من ١٩٧٣ - ١٩٩٥م. وخـرجت الدراسة بنـتائج غـيـر منتظرة بعـد أن تم استـئناف ومـراجعـة هذه الأحكام، حيث اتضح أن ٧٪ من المدانين الذين أعـيدت محاكمـتهم تمت تبرئة ساحتهم، وأن ٨٢٪ منهم حكمت عليهم بأحكام أخف من الحكم بالإعدام.

أظهرت هذه الدراسـة أن «هذا النظام تم إنجازه لتـوليد الأخطاء ثم مـحاولة تصحيحها بعد ذلك» (جيمس ليبمان، منسق الأعمال).

وبمناسبة انعقاد كونجرس رابطة حقوق الإنسان، يوم السبت الموافق ١٠ يونيه ٢٠٠٠م فى باريس، قال رئيس الجمعية الوطنية ريموند فورتى فى خطابه الذى وجهه ضد الحكم بالإعدام فى الولايات المتحدة: «إنه لم يعد عصر العبودية ولا التـفرقـة العنصرية المـنظمة والرسـميـة... الأحكام بالإعـدام بالموت بالتيـار الكهربائي وبغرفة الغاز والشنق فى بلد الإبداع والابتكار.. إنه بلد غريب حيث تتواجد الديانة فى كل مكان وتستحوذ على كل القلوب حيث الثقة فى الله التى تظهر حتى على الأوراق النقدية..» وقـد جاء هذا من خلال المشروع الذى قام بصياغة قانون عام ١٩٨١م بشأن إلغاء حكم الإعدام.

السيد فورتـى من ناحية أخرى، انتقد «صـمت» «المرشح الديمقراطى» للبيت الأبيض آل جور فـى مواجهـة هذه الوحشـية قولاً وفـعلاً، فـماذا اقـترح هذا المرشح؟ لا شيء.. صـمت مزعج أو استـحسـان ضمنى حـصل عليه منافسه الجمهورى (چورچ دبليو بوش). (جريدة لوموند فى ١٣ يونيه ٢٠٠٠م).

هنا، نفهم لماذا يقتنع بعض الناخبين أن صوتهم غـير مؤثر، ولذا تصل نسبة التغيب عن المشاركة فى التصويت فى بعض الأحيان إلى ٦٠٪.

فى آخر تقـرير «لصندوق الدفاع عن الأطفال» المنظمـة الرئيسيـة للدفاع عن الطفولة فى الولايات المتحدة، وصف التقرير المنحنى بأنه فى صعود مستمر بلا توقف بالنسبة لـلقتلى من الأطفال والمراهقين بالأسلحة النارية. فـفى الفترة من

١٩٧٩- ١٩٩١م، بلغ عددهم حوالى ٥٠ ألف أمريكى من ١٩ سنة (منهم ٩ آلاف حالة أقل من ١٤ سنة و٤٠ ألف حالة أقل من ١٥ عامًا إلى ١٩ عامًا) تم قتلهم بواسطة الرصاص فى حوادث وجرائم على حد سواء. أى فترة (١٩٧٩ - ١٩٩١)، حالات التوقيف البوليسى للمتهمين الأقل من ١٩ سنة فى جرائم القتل زادت بنسبة ٩٣٪ حسبما أشار التقرير. وهم عادة من الشباب الذين يقتلون أو يجرحون الآخرين من الشباب أيضًا.

الولايات المتحدة الأمريكية.. فوق الجميع

إن العنف الذى تمارسه الولايات المتحدة فى سياستها الخارجية إنما هو امتداد لما يمارس فى الحياة داخليًا. منذ عام ١٨٩٨م، أكد عضو مجلس الشيوخ السيناتور ألبرت جى بفريدج أن:

«التجارة الدولية يجب أن نستحوذ على النصيب الأعظم منها، وأن نقوم بغزو البحار والسيطرة على التجارة البحرية من خلال تملك أسطول ضخم يتناسب مع قوتنا وطموحاتنا. فهناك مستعمرات كبيرة تحكم نفسها ويمكنها أن تتغلب على مراكبنا؛ لذا يجب أن نضع نصب أعيننا ضرورة السيطرة على الطرق التجارية، وأن يرفرف علمنا على العديد من مناطق العالم من خلال وصول تجارتنا إلى هذه المناطق. يجب أن تصمم مؤسساتنا على وصول القانون الأمريكى والعلم الأمريكى والنظام الأمريكى والحضارة الأمريكية إلى هذه المناطق والطرق التجارية فى العالم، وقد يكون ذلك بصورة دموية.. وستكون نعمة الرب معنا حتى يصبح نجمنا ساطعًا فى أرجاء عديدة من العالم».

«وسيأتى وقت - حسبما قال ترومان - يستلزم علينا أن نحصل على العديد من الأشياء الطيبة من خارج الولايات المتحدة، وخاصة الأشياء التى نحن فى حاجة إليها.. وسيمتد ذلك من سلفادور وحتى ليبيريا التى سنذهب إليها لنبحث عن مناجم الحديد الرخيص الثمن اللازم لصناعة الصلب فى بلادنا. كما أننا سنحصل على النحاس من الخارج لزيادة ما نملكه منه فى أريزونا

وأتوا؛ لأننا لم نعد نحصل على هذا الذى تنتجه شيلى، وسنحصل على القصدير من بوليفيا، والكاوتشوك من إندونيسيا. من المفهوم طبعًا، أننى أستطيع أن أطيل القائمة التى تشمل احتياجاتنا التى يمكن أن يزودنا بها العالم».

ويذكر أن الدول التى وردت فى القائمة تديرها حكومات أوليجاركية أو تحت إدارة مباشرة موالية لواشنطن، حيث الشركات الأمريكية تلعب دورًا استراتيجيًا على المستوى الاقتصادى والتمويلى، إذ تسيطر هذه الشركات الأمريكية بصورة كبيرة على الاقتصاديات الوطنية لهذه الدول.

قبل الحرب الكورية بقليل فى عام ١٩٥٠م، تم تفصيل وثيقة تحدد الخط السياسى للولايات المتحدة، وهى المذكرة الديبلوماسية لمجلس الأمن القومى رقم ٦٨، التى تم تحريرها بواسطة پول نيتز الذى خلف چورچ كينان على رأس فريق سكرتارية الدولة للتخطيط.

لقد تم استبعاد چورچ كينان؛ لأنه اعتبر متمردًا جدًا على السلطة. وقد كتب كينان فى عام ١٩٤٨م، قائلاً: «نحن نملك حوالى ٥٠٪ من الثروات العالمية ولكن لدينا ٦,٣٪ من السكان. فى هذا الموقف، لا يمكن تجنب أن نكون محط غيرة واستياء العديد. إن مسئوليتنا الحقيقية خلال الفترة القادمة تتمثل فى تطوير نظام علاقات يسمح لنا بحماية هذا الوضع غير المتكافئ دون أن يضع أمننا القومى فى خطر. ولتحقيق ذلك، يجب علينا أن نتخلص من أى احتمال للتمسك بالعاطفة وأن نتوقف عن أن نحلم ونحن مستيقظون. فنحن، لا نستطيع أن نسمح اليوم بالإحسان أو إيثار الآخرين على مصالحنا على المستوى الدولى. ويجب علينا أن نتوقف عن الحديث عن الموضوعات الغامضة غير القابلة للتحقيق، مثل حقوق الإنسان وتحسين مستوى الحياة والتحول الديمقراطى. فالنهار ليس ببعيد، حيث سيتعين علينا أن نتصرف بصراحة فى ظروف لصيقة الصلة بميزات القوة. ويجب أن نتخلص من الشعارات المثالية المزعجة» (المصدر: دراسات سياسة التخطيط).

بعد تحطيم العراق، تأكدت إرادة الهيمنة الدولية المغلفة برداء مذهب الكلبية (الذى ينادى باحتقار التقاليد والرأى العام والأخلاق العامة ويتسم بالوقاحة وقلة الحياء والصفاقة والتهكم)، وقد عبر عن ذلك وثيقتان صادرتان عن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، الأولى: كانت تحت إشراف ولفوويتس فى عام ٢٠٠٢م، وهو نائب وزير الدفاع، والوثيقة الثانية: كانت تحت إشراف الأدميرال جيرميا، نائب رئيس لجنة أركان القوات المسلحة الأمريكية، وتوضح المقاطع التالية السياسية الأمريكية:

«أصبح النظام الدولى مستقرًا بصفة نهائية بواسطة الولايات المتحدة، التى أصبحت لديها المقدرة على أن تتحرك بصورة سريعة عندما تكون الظروف مناوئة لاتخاذ أى موقف جماعى على أرض الواقع».

«يجب علينا أن نتصرف بسرعة لكى نمنع ظهور نظام أمن أوروبى مستقل، يمكن أن يهدد استقرار حلف شمال الأطلنطى».

«ضرورة اندماج ألمانيا واليابان فى نظام أمن جماعى تقوده الولايات المتحدة».

«إن إقناع الأنداد والمعارضين المحتملين، يتطلب ضرورة لعب دور أكثر تعاظمًا»...

«الوصول إلى وضع القوة العظمى الوحيدة يمكن أن يدوم من خلال بناء قوة عسكرية كافية ولديها القدرة على الردع، بغض النظر عن المفهوم أو جماعة الأمم التى ستتصدى لتفوق وسيطرة وسيادة الولايات المتحدة. ويجب أن نأخذ فى الحسبان مصالح الأمم الصناعية المتقدمة حتى يتم النيل من حماسها عند محاولاتها التصدى للقيادة (الأمريكية) أو للبحث عن وضع النظام الذى أسسته الولايات المتحدة اقتصاديًا وسياسيًا موضع الشك» (كتبها بول مارى دولا جورس، مدير مجلة «الدفاع الوطنى» فى شهرية لوموند ديبلوماتيك، أبريل ١٩٩٢م).

كل هذا - من المفهوم طبعًا - وفق «المصير المبين» أو «القدر المكتوب على الولايات المتحدة» الذى حدده الله مسبقًا، وقد أكد هذه الحقيقة كل رؤساء الولايات المتحدة.

لقد كرر الرئيس نيكسون فكرة «الشعب المختار» مثل سابقيه: «إن الله مع أمريكا، إن الله يريد لأمريكا أن تقود العالم». قام بنشرها - بعد تقاعده وتخليه عن لزوم التحفظ بحكم منصبه - فى جريدة نيويورك تايمز فى ٧ يناير ١٩٩١م. وكانت مواكبة للحملة الأمريكية على العراق: «نحن لا نذهب إلى هناك للدفاع عن الديمقراطية؛ لأن الكويت ليست بلدًا ديمقراطيّا، ولا توجد دولة ديمقراطية فى المنطقة، ونحن لا نذهب إلى هناك لقتل ديكتاتور، ونحن لا نذهب إلى هناك لندافع عن المساواة الدولية، نحن نذهب إلى هناك؛ لأنه يجب علينا أن نذهب، لأننا لن نسمح بأن تهدد أو تمس مصالحنا الحيوية».

وتلخص «المصالح الحيوية» للولايات المتحدة سياسة فرض إرادتها على المجتمع الدولى (نهاية التاريخ لفوكوياما) وتوحيد السوق للأبد.

يتم هذا الفرض من خلال التهديد بفرض الحظر والعقوبات العسكرية، إن لم تكن ممارسة الفساد كافية.

فى خطاب رئيس الجمهورية الفرنسية شأنه شأن رئيس وزرائه، تم ملاحظة أن كلمة بعينها لم ترد فى خطاب أى منهما، ألا وهى، أنهما لم ينطقا أبدًا كلمة «أمريكى».

لماذا؟

لأنه بكل بساطة، كل ما يفعله الأمريكيون إنما هو **الحرب على أوروبا**.

بدعوى أنه ينطلق من عمليات **لأغراض إنسانية**.

وهل قدمنا ما يكفى لمساعدة «اللاجئين الفلسطينيين؟»

وهل بكينا بما فيه الكفاية على الأكراد فى تركيا؟

لا . . لأن القادة الإسرائيليين والجنرالات الأتراك دائمًا يتم حمايتهم من جانب الأمريكيين، كما حدث بالأمس لپينوشيه ومن تم تعذيبهم فى «سرايا الموت» التى تم تشكيلها واستئجارها بواسطتهم فى أمريكا اللاتينية.

هل يصبح كلينتون والبنتاجون فجأة أصدقاء للإسلام والمسلمين بينما يعذبونهم منذ ١٠ سنوات فى العراق، ويطردونهم ويضطهدونهم فى فلسطين؟

أساسان للسلطة فى الولايات المتحدة: الدولار والله

الرب مع أمريكا.. يريد الرب لأمريكا أن تقود العالم.

ريتشارد نيكسون

التنمية والمضاربة

لماذا نتحدث عن إله؟

ليس بهدف إنكاره ولا بغرض المماحكة فيه.

لكن لأنه منذ أن خلق الإنسان كإنسان، ولا يكف عن تحقيق أحلامه من عدالة وسعادة، لكن واحسرتاه للجهلاء الذين يفتحون أفواههم طالبين المغفرة لجرائمهم.

يصنع الإيمان الأبطال والقديسين الذين يقودوننا ويرشدوننا للخروج من مرحلة ما قبل التاريخ الحيوانية، من كونفوشيوس وبوذا، إلى يسوع والقديس فرانسوا وأسيس وغاندى، إلى لوثر كينج وإلى هلدر كامارا، إلى المتخصصين فى علم لاهوت التحرير.

لكن الديانات المؤسسية ورؤساؤها، بمعنى سلطاتها، تدافع عن طموحات ذات أبعاد كونية، فى ظل الاحتماء بالله، فى ظل تكاثر الجهل والعنف وتقديس السلطات البشرية لغرض قبول الهيمنة، والحروب والرعب والتقهقر الأخلاقى لدى أعداد غفيرة من البشر تعانى من الحقد والبغض وسوء الظن، وما هو أسوأ: اللا تنوع.

لكن، يجب أن نتمسك بأهداب الأمل ولا نتخلى عن الأبعاد الإنسانية (المقدسة بمعنى آخر). إننا فى حاجة إلى هذا الإله الذى نلجأ إليه ليحمينا من مبانى العبادة التى خانت البشر.

نحن فى حاجة اليوم أكثر من أى يوم سبق، لنرى بوضوح حتى ننقذ أنفسنا فى القرن الحادى والعشرين، قرن الانتحار الكوكبى.

لقد كان القرن العشرون متسمًا بالدموية للجميع، ويجب أن نعمل بجد حتى لا تمتد انكسارات القرن العشرين خلال القرن الحادى والعشرين.

خاصة بعد أن فشلت السياسات بمعدل أسرع من فشل مبانى العبادة.

ولأنها فقط الإلهامات المهمة لنهضة الإيمان هى التى ستقود الأعداد الغفيرة من البشر لتغيير مجرى تاريخها، على الرغم من الضعف والرعاة غير الأسوياء الذين يقودونهم.

مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الجديد، نحن فى حاجة أكثر من أى وقت مضى إلى قيامة جديدة للإيمان.

لقياس مدى أهمية المسئولية، يكفى عمل خطة للقرن تحدد أهداف يجب تنفيذها.

ليس فقط منع الحروب، أو حوالى ١١ مليون قتيل فى الحرب الأولى، وحوالى ٥٠ مليون قتيل فى الحرب الثانية، هناك الملايين فقدوا فى كوريا وفيتنام والجزائر ورواندا ولبنان وفلسطين والعراق وكوسوفا، وجاءت المجاعة والبؤس كذلك كأسباب رئيسية لقتل الأبرياء، أكثر من الحروب. إن هذا العالم محطم بين الشمال والجنوب فى ظل «العولمة» الاقتصادية التى تبرر الهيمنة وتعطى الميزة النسبية للأقوى، خاصة وأن «الفجوة بين الدول الغنية والعالم الثالث تزداد حدة».

المناسبات.. غير الناجحة

خلال القرن العشرين، عرف العالم رجلين غارقين تمامًا فى الماضى.

تعلق الأول بأعظم عباقرة القرن الماضى: كارل ماركس الذى أنتج نظرية ولدت الأمل لدى ملايين البشر الذين يتم استغلالهم ويحكم عليهم بالحياة فى

الشقاء والبؤس. لم يتحدث ماركس عن مدينة فاضلة خيالية، ولكنه قدم تحليلاً عميقًا لتناقضات الرأسمالية خلال الحقبة التى عاش فيها. أوضحت معطيات اليوم أن منهاجية ماركس يمكن الاعتماد عليها أكثر من أى وقت (وليس الصياغات التى كررها)، لننجح فى فهم التناقضات الآتية بطريقة أكثر واقعية، **حيث إن النظام الذى نعيش فيه يعانى سكرة الاحتضار بعد أن بلغ أبعد نقطة فى مداره.**

إن غياب الإحساس التاريخى، والإرادة الديكتاتورية للتقليد لأولئك الذين تمسكوا بالحرفية وحاربوا بوحشية وضراوة فى بيئة عدائية، قادهم ذلك إلى الموت المبكر بعد لينين (١٩٢٣م)، إلى تجمد الرسالة وفقدان الثقة وإشهار الإفلاس.

إن الأمل الذى دافع عنه ماركس، قد سقط بعد سقوط من دافعوا عن هذا الأمل، دون أن يفهموا، وكذلك من خانوه.

أما الأمل الثانى، فقد ولد فى القرن التاسع عشر، وتمثل ذلك فى نهضة الإسلام، من خلال قراءة جديدة وحية للقرآن منذ الأفغانى ومحمد عبده حتى الشيخ ابن باديس ومحمد إقبال وعلىّ شريعتى، بعد أن سادت الحرفية فى التقاليد، وطغت المغالاة فى الطقوس والقشور على حساب الأساس والجوهر. أصاب هذا المرض المسلمين نتيجة تجمدهم وإهمالهم العمل للمستقبل حسب المثال الذى أعطاه محمد فى نضاله وصراعه من أجل قيامة إيمان جديد وحى.

ونتمنى أن مرضى الاشتراكية والإسلام يجدان العلاج المناسب من المؤمنين بهما.

الاتحاد السوفييتى.. خيانة ماركس

ماركس: «العبقرية داخل الإنسان تبهج القلب» (الأيديولوچية الألمانية، ص ١٢٨٨).

حدد ماركس الشيوعية من خلال تعريف أهدافها وغاياتها: حيث توفر لكل إنسان الشروط الاقتصادية والسياسية والروحية التى تسمح له بإطلاق كل طاقات الثراء الإنسانى الذى يحمله بداخله.

الاتجاه نحو صبغ الطابع الاشتراكى على وسائل الإنتاج إنما كان بمثابة وسيلة لهذا الإنجاز. يبقى هذا النموذج المثالى نموذجنا، فى ظل ظروف تاريخية جديدة، تنبأ بها كارل ماركس، وإن كان الكثيرون قد صدموا بعد انهيار الاتحاد السوڤييتى والدعوة الجديدة إلى «الليبرالية» التى قادها - منذ قرون - المنظر آدم سميث الذى، قال بأننا سنصل إلى «نهاية التاريخ» من خلال ترميم وإصلاح عالم الرأسمالية.

لقد رأى آدم سميث، خلال لحظة اندفاع تاريخية، أن النظام سيولد مصادر للثراء، لكن سيوازى ذلك لحظات عظيمة للبؤس والشقاء. وسيتم تراكم الثروات فى يد فئة من فئات المجتمع قليلة العدد، مقابل فقر جماعى للفئة الأخرى التى تشمل أعدادًا غفيرة. وأكد سميث أن كل فرد سيتبع مصالحه الشخصية، والمصلحة العامة ستحقق نوعًا من الرضاء. وستحقق ما أطلق عليها سميث «اليد الخفية» التناسق والانسجام بين المصلحة العامة والمصالح الشخصية.

من يمتلك المنطق؟

على المستوى العالمى، اليوم بعد خمسة قرون من الرأسمالية والاستعمار، تراكمت نحو ٨٠٪ من الثروات الطبيعية للكوكب لمصلحة ٢٠٪ من سكانه، يستهلكونها ويسيطرون عليها.

إن الذى يقود كل عام إلى الموت والمجاعة أو سوء التغذية، النموذج الغربى للتنمية الذى يكلف العالم الثالث ما تم تكبده فى هيروشيما مرة كل ثلاثة أيام، **«سنستمر فى تكرار هذه الحقيقة مدى الحياة»**.

إن الفجوة المخيفة بين الشمـال والجنوب لا تتوقف عن التعاظم. فقد لوحظ أن البـرنامج الإنمائى للأمم المتـحدة حـاول فى ثلاثين عـامًـا أن يقلل من هذه الفجـوة بين البلدان الغنية والبلـدان الفقيـرة، لكن جهوده ذهبـت هباء الريح، وزادت الفجوة بينهما بمعدل المثلين.

فى عام ١٩٩٣م، كشف الرئيس كلينتون أن ١٪ من الأمـريكيين يستحوذون على ٧٠٪ من الثروات الوطنية.

في فرنسـا، لوحظ أن هناك فارقًا واختـلافًا نسبيّـا عن الحياة الأمريكيـة، حيث إن المعطيات الاجتماعية الرسمية كشفت فى عام ١٩٩٠م، أن ١٠٪ من إجمالى السكان يملكون ٩٤٪ من الثروة الوطنية. فى حين أن ٩٠٪ من السكان تتـقاسم ٦٪ الباقية من الثروات الوطنية الفرنسية.

فى أوروبا ذات الدول الأعـضاء الاثنتى عـشرة، سبق وأن ذكرنا أن ٥٥ مليـون أوروبى من إجمالى ٣٤٠ مليون يعيشون تحت خط الفقر.

بعـد مرور حـوالى قـرن ونصف القـرن على تحليلاتـه حول قـوانين تطور الرأسمالية، والتحقق من التنبؤات والتـوقعات التاريخية لكارل ماركس، وتفنيد النظرية التفـاؤلية لآدم سميث وطمـوحات الليبراليـة لديه، وجد أن هذا النظام تحت مسمياته المختلفة: الليبرالية والتـبادل الحر واقتصاد السوق وغيرها، فاعلوه الرئيسيون يعملون على فرض قواعد لعبتهم على الكوكب بأكمله.

لقـد تجسـدت مسـاوئ الرأسمـالية فى روسـيا التى كـانت إحدى القـوتين العظميين، ولم تختلف ظروفها عمـا يحدث فى العالم الثالث الجديد الذى بدأ فى تطبيقات سياسات ليبرالية. وخاضت هذه الدولة التجربة بكل ما حملته من ندبات وانكسارات للرأسمالية: ارتفاع معدل البطالة والتضخم والفقر والتسول، حيث تكاثر عدد المتسولين بمعدلات تفوق تكاثر الفطريات السامة. صاحب هذه الانكسارات انكسـار آخر مس النظام الأخـلاقى نتيجـة ارتفاع مـعدلات تداول المخدرات التى أصبحت فى ٤ سنوات على مستوى الولايات المتحدة.

فى أوروبا، عرفت معاهدة ماستريخت على أنها «الدعامة الأوروبية للتحالف الأطلنطى»، حيث إنها شكلت نادى الدول الاستعمارية سابقًا، وبمعنى آخر الأنداد المتصارعين. لكن اليوم، تم توحيد القوى الاستعمارية تحت إدارة أمريكية.

لا يمكن الحديث عن أية وحدة أخرى يمكنها الصمود والوجود. يتطرق الحديث هنا إلى السياسة الخارجية أو السياسة النقدية والمالية. فالهدف الذى تسعى الولايات المتحدة إلى إنجازه يتمثل فى عدد من المضاربين الدوليين من نوعية چورج سوروس مدعمين من جانب البنك الأمريكى.

وتكمن نقطة ضعف الولايات المتحدة فى الاقتصاد، بمعنى أن هذا هو الميدان الذى يمكن مهاجمة الولايات المتحدة فيه.

إن أى ضعف يمكن أن يصيب أدوات الهيمنة الدولية التى تستخدمها الولايات المتحدة مثل: صندوق النقد والبنك الدولى، سيكون بمثابة ضربة قوية للهيمنة الأمريكية. وقد تجسد ذلك فى المواجهة الأمريكية الأوروبية بشأن السياسة الزراعية.. ورفض أوروبا الصادرات الأمريكية الزراعية والغذائية المعدلة وراثيّا.

كل المجالات، بما فيها الثقافية، حتى بما في ذلك التليفزيون وبرامج المنوعات، ركزت على تسويق الثقافة الأمريكية المرتكزة على العنف والمال.

يجب على أوروبا أن تدافع عن هويتها: الزراعية والصناعية وبالتأكيد الثقافية. من المنطقى أن أوروبا لا تستطيع أن تكون بديل الثقافة الأمريكية، لكن يجب ألا تقبل موقع الخضوع والتبعية للثقافة الأمريكية. وقصدى كل ما هو أمريكى الأيديولوچية وليس الشعب الأمريكى، حيث قصد هذا المعنى كلاً من تونى بلير وشيراك وجوسبان وشرودر.

مرض الاشتراكية

لقد انتقد ماركس بحدة تناقضات النظام الرأسمالى، انطلاقًا من تحليل

التنمية فى انجلترا فى القرن التاسع عشر وقوانين تطور هذا النظام، وأعطى الأولوية لوسائل الإنتاج على المنتجات الاستهلاكية.

ورفض دائمًا أن يراهن على مستقبل وبناء الاشتراكية: «فأنا لا يمكننى أن أحصد العوائد مستقبلاً من مطعم صغير».

كذلك، من طالبوا بعد انتصار الثورة فى روسيا فى أكتوبر ١٩١٧م، بابتداع نموذج جديد للتنظيم الاقتصادى والسياسى، وكان ذلك فى ظل ظروف صعبة للغاية.

أولاً: لأن السنوات الأولى كانت صعبة؛ لأنها تكشف مدى قدرة الثورة على الاستمرار والحفاظ على بقائها فى مواجهة ائتلاف معاد، مشابه للائتلاف الذى واجهته الثورة الفرنسية وعمل على إجهاضها فى ١٧٩٣م، وقاد بعد ذلك إلى سيادة حالة من الهلع والرعب، ثم ظهور الديكتاتور نابوليون.

الهدف الذى دافع عنه صراحة تشرشل وكليمنصو ونادى به، تمثل فى دعم مناوئى الثورة. فكما قال تشرشل: «بناء نطاق من الحجر الصحى القوى حول موسكو»، وحدد ذلك بتجويع روسيا. من جانبه، نادى كليمنصو «بسياسة الأسلاك الشائكة الحديدية حول موسكو».

فى كتابه «الأزمة الدولية» وجه تشرشل انتقادات حادة إلى دولة السوفييت معتبرًا تلك الانتقادات «حملة صليبية من ١٤ دولة» حسبما أشار إليه الدوق براون سويج، الذى أشاد بمحاولات هزيمة الثورة فى باريس. وإذا كانت هذه «الحملة الصليبية» قد نجحت فإن كلاً من تشرشل وكليمنصو قد أثنى على الحصار الذى فرض على روسيا: حصار التجويع (وعلى المستوى الرمزى تبرع أناتول فرانس بجائزة نوبل التى فاز بها لمن يعانون المجاعة فى منطقة الڤولجا).

لقد تم تجاوز هذه الكوارث الأولى بخسائر إنسانية فادحة. فقد صاغ لينين الخطوط العريضة للمستقبل. فعلى سبيل المثال، فى المقال الأخير الذى كتبه لجريدة البراڤدا – قبل موته – على جزئين، يومى ٤، ٦ يناير ١٩٢٣م تحت

عنوان «فوق التعاونية»، رأى أن المزارع التعاونية ستسغرق ما بين ٥٠-٦٠ عامًا لكى يقبلها الفلاحون.

خلف ستالينُ لينينَ فى قيادة الاتحاد السوفييتى، وكان أقل ثقافة من لينين وأكثر حدة وخشونة. وطمع فى أن يحدث نوعًا من التغيير الجذرى خلال بضعة شهور، مستخدمًا فى ذلك القهر والقسر والإجبار. الأمر الذى انتهى إلى حدوث حرب حقيقية ضد الفلاحين الذين اصطدموا مع كبار ملاك الأراضى الزراعية. ونجم عن ذلك حالة مخيفة من القهر والقمع.

هدف ستالين من وراء هذا التغيير، التحول من التعاونيات الزراعية إلى التصنيع.

عادة ما ننسى أن نفقات هذا التحول نحو التصنيع، قد سببت الكثير من التشوهات والندبات التى ما زالت تعانى منها العديد من الدول عند تحولها للصناعة.

فى فرنسا، نملك وثائق عديدة، منها التحقيقات الشهيرة التى أجراها فيلبرم الذى صاغ (يوميات للحالة المادية والمعنوية للعمال الموظفين فى مصانع القطن والصوف والحرير، باريس ١٨٤٠م). وكذلك تحقيقات أوجين بيرت حول «فقر الطبقات العمالية فى فرنسا وانجلترا». وكانت نتيجة التحقيقات أن التغيير فى كل من فرنسا وانجلترا غلبت عليه الدموية.

كشفت إحصائيات عام ١٨١٧م، أنه فى عشرة أقاليم من أكثر الأقاليم تصنيعًا، بلغ معدل الوفاة عند الميلاد معدلات مرتفعة. ففى تقرير عن مدينة ليل للدكتور كاسيه، اتضح أنه: **«فى مدينة ليل، يموت قبل بلوغ السنة الخامسة طفل من كل ثلاثة أطفال، وأنه من بين ٤٥٠ حالة ميلاد، نجد أن هناك حوالى ٤٦ حالة وفاة تم رصدها..»**.

فى نانت، أخبرنا الدكتور جوبان أن **«العمال - فى المتوسط - لا يستطيعون تربية الربع من أطفالهم»**.

فى عـام ١٨٤٠م، رجل صناعة من تان، لخص نـتائج غـياب التـشريعـات الخاصة بالعـمل قائلاً: «هذا يقود إلى إنهاك قوة الناضـجين؛ بسبب أيام العمل الطويلة والشاقة. إن ترك المرأة للمنزل يعجل من تفكيك الروابط الأسرية بشكل مخـيف. فقد زاد عدد الأطفـال المتوفين عند الميلاد؛ بسـبب تردى أحوال المرأة العاملة، وتشوه ولين العظام عند الأطفال العاملين».

إن تردى أوضـاع الأيدى العـاملة يمكن أن يمثل تهـديدًا على المدى البـعيـد للصناعة. وسيلجأ فى هذه الحالة رجال الأعمال والصناعة إلى الريف من أجل تنظيم العمل.

تعددت المرات التـى تدخل فيهـا برلمانيون ليطلبـوا من الحكومة منع عـمالة الأطفـال الذين تقل أعـمـارهم عن خـمس سنوات فى المناجم. وفى صناعـة الأقطان، كشف نـائب برلمانى فى عام ١٨٣٩م، أن عدد الموظـفين من الأطفال بلغ حوالى ١٥٠ ألف طفل عامل، فى عمر من خمـسة إلى أربعة عشر عامًا، يعمل ما بين أربع عشرة إلى ست عشرة ساعة يوميًا.

ولقد نظم القانون الذى صدر فى ٢٢ مارس ١٨٤١م عمالة الأطفال. ونص على أن الأطفال فى الشريحة العمرية الأقل من ثمانى سنوات، يجب ألا يقبلوا للعمل فى المصانع. وفى الشريحـة العمرية من ثمانى سنوات وحتى اثنتى عـشرة سنة، لا يسمح لهم بالعـمل إلا لمدة لا تزيد عن ثمانى سـاعات عـمل يوميًـا. ومن اثنتى عشـرة سنة وحتى ست عشرة سنة، لا يسـمح لهم بالعمل أكثر من اثنتى عشرة سـاعة يوميًا. هذا وقد قوبل القـانون بمعارضات شديدة وقـوية، وهدد باحتمالات عـدم تمريره، خاصة فيـما يتعلق بالجزئية الخاصـة بمفتشى العـمل، حيث طالب رجـال الصناعة باختـيار مـفتـشين متطوعين للتـحقق من تنفيـذ القانـون. وكانت الموافـقة على طلب رجـال الصناعة سببًا فى تمرير القانون.

فى انجلتـرا، التحـول والمرور من مرحلة الزراعـة إلى تربية الخـراف لتنميـة الصناعة المعتمدة على الصوف، أدى إلى نزع ملكية العديد من صغار الفلاحين

واستغلال العمال بصورة وحشية وقاسية فى مصانع النسيج التى قمعت العمال بصورة همجية.

مثلت العلاقات فى تلك المرحلة صورة مرعبة ومخيفة عن ظروف العمل فى المصانع الجديدة والمناجم، حيث تفشى السل، وتم استغلال الأطفال بصورة غير آدمية، وأجبرت النساء على ممارسة البغاء. وقُوبلت الاضطرابات بالعنف الدموى. وانخفضت المرتبات وخاصة للنساء اللاتى كثيراً ما تم عقابهن جسدياً. وارتفعت معدلات الوفاة عند الميلاد؛ بسبب تردى الأحوال الصحية. وانهارت الأخلاق العامة بصورة لم يسبق لها مثيل فى انجلترا.

تحققت التنمية الزراعية وصناعاتها فى أمريكا عن طريق موجات البيع الجماعية للعبيد السود فى المزارع.

فى حين أن شمال الولايات المتحدة كان فى حاجة إلى أيد عاملة من نوعية أخرى بعيداً عن عمالة العبيد من أجل قطاع التصنيع. ولقد أثار هذا حرباً ضروساً بين الشماليين فى الولايات المتحدة الرافضين للعبودية والجنوبيين الذين اعتمدوا بقسوة على العبودية.

فالجنرال شيرمان الشمالى الذى كان مع قتل الهنود، وأطلق المقولة الشهيرة إن «**كل هندى أحمر قوى إنما هو قابل للقتل**»(*)، كان يرفض نظام العبودية، وحارب الجنوبيين للقضاء على هذا النظام، من خلال قيادته لجيش الشمال. وعلى الرغم من ذلك، فلقد أدى انتصار الشمال إلى تخليد نظام لا يقوم فقط على التمييز العنصرى حتى يومنا هذا فحسب، بل وعلى نظام تصل فيه مرتبات العمال الفقراء إلى أدنى مستوياتها وتقترب كثيراً من خط الفقر (وبلغ

(*) كثيراً ما شبه المهاجرون لأمريكا أنفسهم ببنى إسرائيل، وشبهوا أعداءهم من الهنود الحمر (السكان الأصليين)، وغيرهم من الأعداء، بأعداء بنى إسرائيل ... سواء كانوا الفلسطينيين أو العماليق، أو فرعون مصر. واستعاد الصهاينة الأسطورة، فأصبحوا يشبهون الفلسطينيين بالهنود الحمر، ويستعيرون من أدبيات المهاجرين فيما يخص الهنود الحمر ما يطلقونه على الفلسطينيين.

عددهم حوالى ٣٣ مليون مواطن فى عام ٢٠٠٠م). كما أدت البطالة على المدى الطويل إلى قطع المعونات التى تُمنح للعاطلين.

لقد أفرز هذا البؤس والشقاء المستوطن نظامًا ترتفع فيه معدلات ارتكاب الجرائم ليدخل ما يقرب ٢٪ من إجمالى المواطنين السجون أو يصبحوا رهن المراقبة والاعتقال.

إن تسارع عملية التصنيع فى الاتحاد السوفيتى أدى إلى تكبد النظام هناك لتكاليف إنسانية باهظة، لزمت عملية التسريع بسبب تطويق الرأسمالية وتهديداتها وغياب الاستثمارات الأجنبية.

وأدت هذه العناصر كذلك إلى ظهور سياسة التسليح التى جعلت الاتحاد السوفيتى فى مصاف الدول الكبرى شأن الدول الأوروبية الكبرى والولايات المتحدة (ولكنها أدت كذلك فى النهاية إلى تفكيكه) فى عام ١٩٣٠م. **وقد قال ستالين فى الكونجرس (المؤتمر) السادس عشر للحزب البلشفى «يجب علينا أن نتجاوز هذا التأخر خلال عشر سنوات وإلا سينجحون فى تحطيمنا!»**.

عشر سنوات! وفى عام ١٩٤١م، قام هتلر بغزو روسيا.

استهدفت خطة عام ١٩٣٠م تحقيق إنتاج يقدر بنحو ١٠ ملايين طن من الحديد فى عام ١٩٣٣م. وقد قال ستالين: «إننا فى احتياج شديد لنحو ١٧ مليون طن فى عام ١٩٣٢م». ولم تنجح روسيا فى تحقيق هذا الهدف من الناحية الواقعية إلا فى عام ١٩٤٩م. وقد نجمت عنه تكاليف بشرية مخيفة بالنسبة للسوفييت. ولكن الشىء الذى لم تستطع هذه الدولة أن تقاومه، تمثل فى آلة الحرب الهتلرية الجبارة التى استعدت ثلاث سنوات لغزو ستالينجراد، قبل أن تنظم قوى الغرب صفوفها لتشن هجومًا بريًا مضادًا.

ولقد اتسم هذا الغزو والرد عليه بغلبة مشاعر الحقد والبغض من ناحية، والنظرة الأسطورية فى جريان الأحداث من ناحية أخرى.

بعد ذلك دخلت القيادات السوفييتية فى العديد من الأخطاء، منها: ذلك التنافس الحامى الوطيس بين نظامين اقتصاديين رأسمالى واشتراكى، وفساد التفسيرات النصية الأصولية لمقولات ماركس بشأن قوانين «التنمية والتطور» التى استمدت فى القرن التاسع عشر من الحالة الإنجليزية.

لقد مثلت انجلترا فى القرن التاسع عشر فى فكر ماركس نموذجًا لتطور الرأسمالية، وتحدث خروتشوف عن النظام الذى كان مطبقًا فى القرن التاسع عشر، فى إطار اشتراكى ومركزى لدرجة منافية للعقل، قائلا إنه كان «يجب أن يساعدنا على اللحاق بالغرب.. وتجاوزه».

لقد تم تقليد «نموذج التنمية الرأسمالى» من جانب الدعوة والميل للاشتراكية التى جعلت «الرأسمالية أفضل من الرأسماليين»!

إن الصراع والعداء الذى برز خلال حقبة «الحرب الباردة» مع الولايات المتحدة، خاصة على مستوى التسليح، أدى إلى سقوط الاتحاد السوفييتى وتخلفه اقتصاديًا فى مواجهة الولايات المتحدة.

ولقد بدد الزعماء السوفييت موارد عظيمة وكثيرة ليمارسوا نوعًا آخر من الاستعمار، تمثل فى محاولة دعم عدد من النظم السياسية عبر العالم، فى محاولة لمحاكاة النظام الاستعمارى الغربى. وقد قدم الاتحاد السوفييتى المساعدة لكل الدول التى تسعى إلى التخلص من هيمنة القوى الاستعمارية، وتطمع فى اقتناص حريتها والأخذ بنظام سوفييتى مشابه، غريب كلية عن تراكمها التاريخى ومؤسساتها وتقاليدها (مثلما حدث بالقسر والقهر فى دول شرق أوروبا التى خضعت لموسكو).

إن عجز بريجنيف وتهور جورباتشوف والعهر السياسى لبوريس يلتسين، قد أدى فى النهاية إلى انهيار الاتحاد السوفييتى. واعتبر دور كل منهم فى التطور التاريخى السوفييتى بمثابة جريمة وخيانة لماركس.

ولقد حدث ذلك على ثلاث مراحل:

١- جورباتشوف: اتسم عهده بعدم الوضوح الأيديولوچى للنظام الذى اقترف خطأ عظيمًا من ١٩٨٥-١٩٩١م، فى اعتقاده بأنه لا يوجد اختيار آخر خلاف «الانفتاح» أو «الانغلاق»، وضرورة السير على درب التحول الديمقراطى على الطريقة الغربية كمقدمة لنظام «ديمقراطى» يأخذ ويخضع لقوانين السوق، و«إعادة تفكيك الدولة» لاختيار مدى فاعليتها أمام قوانين السوق.

٢- انتهت هذه السياسة إلى «أوبريت العصيان المسلح»: يلتسين ضد البرلمان فى أغسطس ١٩٩١م، حيث بدأت تأتى جماعات المافيا العالمية بما فيها المافيا الأمريكية لتتوطن فى روسيا، بفضل سياسات يلتسين المتواطئة وفريقه الفاسد الذى رفع معدلات المضاربة داخل النظام. ونجم عن ذلك نتيجتان، لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، ارتبطتا بعملية ترميم وإصلاح الرأسمالية: الصعود المحتم والمدمر لحفنة من المضاربين (البعض جاء من الخارج والبعض الآخر من المرتدين عن الاشتراكية وماركس)، ومن ثم: تزايد أعداد العاطلين وتفشى البؤس والشقاء.

٣- المرحلة المحورية الأخيرة تمثلت فى التفكيك الرسمى للاتحاد السوفيتى من خلال استفتاء شعبى أجرى فى ١٧ مارس ١٩٩١م، عبرت فيه الغالبية عن ضرورة الحفاظ على وحدة الاتحاد السوفيتى، وأن يتوقف حل حلف وارسو (بين الاتحاد السوفيتى وجيرانه فى شرق أوروبا) على تفكيك متزامن لحلف الناتو، وألا يكون تفكيك حلف وارسو من جانب واحد. ونجم عن سياسة يلتسين العار، بعد أن تم توقيع اتفاق فخرى بين روسيا الاتحادية وحلف الناتو فى ٢٧ مايو ١٩٩٧م بباريس، جعل من روسيا رهينة خلف أبواب الناتو.

ولا يختلف الحال كثيرًا بالنسبة لروسيا البيضاء التى صاغت صورة ذهنية مسبقة للانفصال عن الاتحاد السوفيتى، محطمة بذلك روابط التضامن التى وجدت بين كل «جمهوريات» الاتحاد السوفيتى السابق.

عادت روسيا بعد ذلك فى مرة ثانية، بعد أربعة قرون، حيث لم يعد لروسيا غير موسكو، بعد أن كانت إحدى القوتين العظميين، أصبحت مجرد دولة من دول العالم الثالث، موردة للمواد الخام ومخزن للنفايات الآتية من الغرب، تحت إشراف المضاربين الفعليين الذين لا وطن لهم، ويغلب عليهم صفة المواطن العالمى.

إنه لمن الصعب اليوم، تصور أى سيناريوهات بشأن استعادة روسيا لمكانتها السابقة.

* سواء كان ذلك على صلة بترميم وإصلاح الرأسمالية الذى ربما يقود إلى تقلص روسيا واستبعادها من المشاركة فى إعادة بناء وحدة عالمية حقيقية، من خلال الانصياع تحت لواء «العولمة»، أو بمعنى آخر الهيمنة الأمريكية.

* أو من خلال الفرضية المقابلة التى تتعلق بأن روسيا ستوجه دعوتها وتوجهها إلى الشرق مثلما حذده دوستويفسكى فى صحيفته «جريدة الكتاب»، وقال فيها إن «روسيا لن تكون فقط فى أوروبا ولكن أيضًا فى آسيا، فهى ليست أوروبية فقط، بل وآسيوية أيضًا، وقد تكون آمالنا أعظم فى آسيا من أوروبا. ومصائرنا المستقبلية فى آسيا قد تكون انفتاحنا الأساسى على العالم».

لقد تعلم الشيوعيون الروس من التجارب التى جعلتهم شعبًا بددته الأوهام الناجمة عن كارثة إصلاح وترميم الرأسمالية التى أصبحت تشبه الأخطاء الناجمة عن الماضى وحقبة «الحزب البلشفى».

أولاً: فيما يتعلق بمواجهة توحيد السوق والانكسار الذى سببه، برزت أهمية وأولوية البحث بالمعنى «الروحى». إن هناك دلالة فى أن يكون الرئيس الحالى للحزب الشيوعى الروسى زيجانوف، رئيس الجمعية الوطنية (الدوما). أوضح زيجانوف فى كتابه «روسيا بعد عام ٢٠٠٠» (الذى صدر عام ١٩٩٩م فى طبعة فرنسية) أنه يعترف بأهمية الروحانية، بمعنى البحث فى حياتنا الشخصية وتاريخنا المشترك (ص١٧٢). وكتب «**يجب أن تستهدف سياسة الدولة دعم**

الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والطوائف الدينية التقليدية الأخرى فى روسيا، بحيث تدعم هذه الطوائف التماسك الأخلاقى للمجتمع».

وكتب زيجانوف فيما يتعلق بالصين: «تعطى الصين إجابة خاصة على التحدى الاقتصادى الغربى، هذه الإجابة ترتكن على قيمة الكونفوشيوسية التقليدية التى تعلى من شأن العمل والاعتدال، لكن أيضًا يتزامن تحقيق ذلك من خلال حقبة تاريخية اشتراكية» (ص ١٣١).

وكتب زيجانوف أيضا فيما يتعلق بالإسلام: «فى الإسلام، السلطة قبل أى شىء واجب، اختيار، مسئولية عظيمة. وبدون أدنى شك، فإن العلاقة بالدولة فى روسيا، ونظرة الروسى تجاه دور الدولة فى المجتمع أقرب كثيرًا للنظرة الإسلامية منها للمفاهيم الغربية» (ص١٨٩).

إن تبنى هذا الاتجاه نحو الروحانية، يقود إلى ظهور مفهوم جديد خاص بالسياسة الخارجية الروسية يتمثل فى: «إن تعقد الموقف التاريخى الروسى يجعل من دولتنا همزة وصل بين حضارات الغرب والشرق. وإننا اليوم لا نملك مقدرات إيقاف التوسع الذى يقوم به حلف الناتو. ولكننا نملك القدرة على رفض أى دور أحمق ويتناقض مع طبيعة دورنا التاريخى؛ لأننا مع الصين والعالم الإسلامى، بدلاً من أن يتم حصارنا، يمكننا أن نفرض سياستنا الخارجية دوليًا» (ص ٢٤٧).

«فى حين تسعى الولايات المتحدة إلى أن تفرض هيمنتها على العالم، نجد أن روسيا والعالم الإسلامى محكوم عليهما أن يكونا حليفين استراتيجيين بقدر ما هما مهتمين بتجنب اضطراب الأحداث فى هذه المرحلة» (ص١٨٧).

بنفس الأهمية: «فى الأزمنة الأخيرة، رأينا أن هناك تقاربًا سياسيًا يتم صياغته بين روسيا والصين، مع تبنى رؤية لتأسيس شراكة استراتيجية بين الدولتين. ولن يحدث هذا بصورة مفاجئة. إن الأحداث التى تطفو على السطح، على المسرح الدولى، توضح أن هناك مصيرًا تاريخيًا واحدًا ومشتركًا يجعل هناك تقاربًا لا مفر منه بين روسيا والصين... تجمعًا لأسباب موضوعية

جعلت روسيا والصين فى موقف معارضة على المدى الطويل فى مواجهة الغرب» (ص ١٧٠ - ١٧١).

ويمكن التحقق من هذه الأسباب الموضوعية، فى ضوء الموقف المتأزم الذى يعيشه الشعب الروسى، منذ إصلاح وترميم الرأسمالية، حيث أصبحت الحقبة التى يعيشها الروس تسمى بمرحلة الكارثة.

«إن السبب الرئيسى للشر يكمن فى محاولة ترميم وإصلاح الرأسمالية التى تهدم الأركان المادية والروحية للمجتمع والدولة» (ص٢٠٧).

إن المشكلة التى تعانى منها روسيا اليوم تتمثل فى بلوغها، على مستوى الخريطة الداخلية، لحالة تمكنت فيها جماعات المافيا من التحكم فى الاقتصاد لمصلحة حفنة من المضاربين، وسعيهم الحثيث لدمج الاقتصاد الروسى فى الاقتصاد العالمى والأمريكى، من خلال الاندماج فى «العولمة» التى تعنى أمركة العالم. إن تحرير هذا الأخطبوط، يفرض على روسيا أن تقوم بخلق روابط ليست لها علاقة بالهيمنة والسيطرة السابقة التى مارسها الاتحاد السوفيتى، لكن من خلال اتحاد أخوى مع روسيا البيضاء وأوكرانيا وجمهوريات آسيا الوسطى.

تستطيع، إذن، روسيا أن تلعب دوراً من الدرجة الأولى، على خريطة تحقيق ما أسميناه معارضة «العولمة» الإمبريالية، من خلال وحدة سيمفونية للعالم الذى يجب أن يضع نهاية لكل صور الهيمنة والسيطرة وتحطيم العالم بين صراعات الشمال والجنوب.

الأمركة والإسلام .. أمراض الإسلام

الإسلام الحى

ليس الإسلام بدين جديد، ولكنه ولد متجدداً مع رسالة النبى محمد.

الله، ليس بإله خاص بالمسلمين. الله «إله»، فى الترجمة الحرفية، كلمة

تعنى إلهًا واحـدًا، فالمسيحى الناطق باللغـة العربية فى صلواته وطقـوسه يقول الله، ليدعو الإله.

الإسلام يعنى الهجرة الطوعيـة الإرادية، والارتباط بإله واحد، وهذا ما يعد قاسمًا مشتركًا فى كل الديانات السماوية: اليهودية والمسيحية والإسلام، منذ أن نفخ الله فى الإنسان من روحه.

ويحدد القرآن بطريقة جلية ومباشرة رسالة محمد كاستمرار للرسالات، فهو ليس بدعًا من الرسل. وقـد كرر القرآن عـدة مرات رسالات الأنبيـاء السابقين ورهن إيمان المسلم بالإيمان بهم كلهم وبكتبهم **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾**، فمحـمد، كما يقـول القرآن ليس إلا نبيًا، وقـد عاش أنبياء قـبله وكلهم كانوا رسلاً لنفس الإله.

إبراهيم بخضـوعه وطاعتـه غير المشروطة لإرادة الله بما يـتجاوز أخلاقـياتنا ومنطقنا الإنسانى، هو «أبو المؤمنين» ومرشـدهم المثالى، فديانتك فى القرآن إنما هى «ديانة أبيك إبراهيم»، حـيث إن بديانة إبراهيم تدعى مسلمـًا، وهذا يعنى الخضوع والطاعة لله، منذ قرون، قبل النبى محمد.

يسوع، لم يتم اعتباره فى القـرآن كابن الله، ولكنه يشغل بين الأنبياء مكانة استثنائية بسـبب ميلاده الإعجازى من عذراء. وقـال الله فى القرآن بشأن مريم **﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ٩١].

يؤكد القرآن أن المسلم هو من آمن بكل الأنبياء السـابقين وكتبهم، ولا يفرق بين أحد منهم، فالمسلمون هم جماعة مؤمنة، داخل جماعات المؤمنين الآخرين بالأنبياء السابقين وبكتبهم.

إن الله فى القرآن يأمر المسلمين بالإيمان بكل أنبياء بنى إسرائيل.

جاء النبى محمد ليذكر كل البشر بالدين الأساسى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، يؤمن بالدين الحنيف، والدين الطبيعى الذى سجله الله فى قلب كل إنسان كهداية غير قابلة للتبديل، حيث جبل الله خلقه. هذا هو الدين الحقيقى.

تكمن المشكلة الحقيقية، فى إيضاح كيف يمكن أن يشارك الإنسانَ فى صناعة عالم دائم فى التجدد كعطية من الله، يكشف عنها القرآن فى أن الله لا يتوقف عن الخلق ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

ولا نستطيع أن ندرك ذلك إلا من خلال العلامات «الآيات»، فى عالم يمكن التعرف على ملامحه وأحداث تاريخه وبشره أو قيامة أنبيائه.

إن الرؤية الديناميكية التى جاءت فى القرآن، تجسدت من خلال قدرة الله الخلاقة، إذ إنه «الحى القيوم»، فهو «الخالق الأول الذى لا يتوقف عن الخلق»، فهو حاضر فى كل شىء جديد. هذا الخلق المستمر يحفظ استمرار العالم، فهو يبدأ الخلق، ثم يبدأ من جديد فى الخلق، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

تعطينا الشريعة القرآنية المبادئ الإرشادية للبحث عن وسائل «الحداثة» المختلفة عن تلك التى فى الغرب. هذا البحث الذى يقوم به كبار القانونيين يعطينا المثال على الجهد اللازم بذله من خلال (الاجتهاد) لحل المشكلات التى تظهر فى

المرحلة الزمنية التى يعيشونها، فكل واحد منا مسئول شخصيًا عن المشاركة فى حل مشكلات المرحلة التى نعيشها. «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» وقبل كل شىء، لكى نعبر من مرحلة المجتمع القائم على الربح (توحيد السوق) إلى مرحلة المجتمع المؤسس والقائم على القيم (التى لا يُقصد بها قيم تجارية).

***

لم تستخدم كلمة شريعة فى القرآن إلا مرة واحدة ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا**﴾ [الجاثية: ١٨].

وظهرت اشتقاقات من الكلمة كما يلى:

﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [الشورى: ١٣].

﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ [المائدة: ٤٨].

ونفهم منها أن الله شرع لنا طريقًا إليه، لكل منا طريق، ولو شاء لشرع لنا طريقًا واحدًا، ولكن جعل الله لكل أمة شرعًا، أى طريقة، يؤدى إلى الله.

وبهذا تجتمع الأديان على الله، وتجتمع على إرادة الوصول إليه، ولكن لكل منها أحكام الطريق، وهى تشريعات اليهودية والمسيحية والإسلام، فيما يخص الزواج والميراث ووضع المرأة، والعقوبات وما إلى ذلك.

﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٧].

مرض الإسلام(*)

يتجسد انكسار الإسلام فى:

١- حصر وحكر الإسلام - وهو دعوة عالمية لكل زمان ومكان - على استيعابنا (فقهنا) لتجربة وفهم المسلمين فى القرون الأولى وعالمها المحدود.

٢- الشريعة(**) ، قانون الله، لم تعد عند النصيين أو الحرفيين - المتمسكين بالحروف عوضًا عن الجوهر والأساس- قاعدة للتطبيق العالمى، المؤسس على قوانين عامة، قابلة للتطبيق فى مجتمعات متنوعة تنوع الزمان والمكان.

الله وحده هو الذى يأمر، الله وحده هو الذى يملك، الله وحده هو الذى يعرف، وأيضًا الله وحده هو الذى يحكم على طموح يتخفى تحت سلطة الحق الإلهى المقدس، ويحكم على كل هيمنة أو سيطرة، ويحكم على كل عقيدة لاهوتية وعلى كل طموح للمعرفة.

احتكر الفقهاء تفسير الشريعة، وقام أكثرهم بتفسيرها بصورة حرفية، حيث اختزلوا تفسير بعض آيات الأحكام على حالات معينة، سعوا إلى تطبيقها على مجتمعات متباينة عن مجتمعنا.

إن طموح «تطبيق الشريعة» يصطدم - على الرغم من تعريفها فى القرآن - مع «الفقه» الذى يعنى التطبيقات الإنسانية التى استخلصت عبر التاريخ، ممزوجة بالتفسيرات التى قدمها القانونيون، أيًا كانت درجة صحتها أو خطأها،

(*) يقصد جارودى بالإسلام المسلمين.

(**) يفرق جارودى هنا بين شرع الله - كما أراده - والشرع الذى فهمه العلماء من القرآن والسنة، وأعلنوه على الناس باسم الفقه. وقد فصل ذلك الدكتور محمد خاتمى فى كتابه: الإسلام والعالم، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

عدلها أو ظلمها فى ظل ضغوط السلطة وغيرها.. وهذا ما يقود إلى ظهور أمراض الإسلام اليوم.

لدينا تمام الحق لرفض انحطاط الغرب ونفاق قانونه، وكذلك رفض كل العصب الاستعمارية والائتلافية مع «توحيد السوق» التى تطمع الولايات المتحدة فى فرضها على أتباعها، من خلال توصيات صندوق النقد الدولى وشروطه المجحفة. ولكن تعانى الأيديولوچية الإسلامية من الشلل؛ لأن الأمر الذى نحن بصدره ينصرف إلى بناء مستقبل جديد - وهذا يتعارض مع مطامع الولايات المتحدة - من هنا تصبح الأيديولوچية الإسلامية بمثابة خطر الدين الإسلامى، علاوة على الغموض الشائع بين أساس الشريعة (الطريق الأخلاقى المفتوح باسم الله وكل الأنبياء) من ناحية، وتطبيق التشريع المعروف باسم «الفقه» الذى يمكن استخلاصه حسب كل مرحلة أو حقبة تاريخية، لحل مشكلات هذه الحقبة التاريخية.

يتكون هذا الغموض بالأساس من الرغبة فى تطبيق قانون للعقوبات من القرن السابع (مثل قطع أيدى من يقترف جرم السرقة، على مجتمعات حيث أصبحت السرقة فيها صورة من صور المضاربة.. لا تتطلب استخدام الأيدى بل هناك سرقات أفظع وأشد هولاً، لا تُستخدم فيها الأيدى.. سرقة الحياة الشريفة الكريمة العزيزة من ملايين البشر.. سرقة أعمار الشباب وأحلامهم وطموحاتهم.. سرقة البشرية من نفوس البشر)(*).

(*) يرى جارودى أن الشريعة هى نظام أخلاقى، اجتمعت عليه الأديان السماوية، يصلح لكل البشر فى كل زمان ومكان، بينما يرى أن القوانين، أو الأحكام، إنما هى وسائل للحفاظ على الشريعة وخدمتها، وتتغير بتغير الزمان والمكان.

فمثلاً السرقة: محظورة ومحرمة فى كل الأديان، فى كل زمان ومكان. فهى من أسس النظام الأخلاقى.

وقطع يد السارق: هو وسيلة لمنع السرقة، ناسبت القرن الأول الهجرى فى شبه الجزيرة العربية، ولا تناسب أزمنة وأمكنة أخرى. ومن يأخذ الآية بحرفيتها يقول له: هل تأخذ آية سورة الأنفال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ بحرفيتها؟

وهذا الرأى - مع ما فيه من وجهة نظر - لا يتفق مع التيار التقليدى الرئيسى بين علماء الإسلام، ولا يوافقه عليه إلا قلة قليلة.

إن التطبيق النصى أو الحرفى لتشريع، باستخدام حافز أو مبرر ورد بالقرآن، سيثير الارتباك والخلط فى فهم هذا القانون الإلهى الأبدى، الشريعة (كقانون ثابت غير متغير ومطلق، ومشترك بين كل الديانات وكل الحكم) التطبيق الحرفى كان تطبيقًا تاريخيًا، خاصًا بزمان ومكان. من المفهوم، أن الاثنين وردا وظهرا فى القرآن، لكن الغموض والالتباس بين الاثنين وتطبيقهما الأعمى - رافضًا هذا التفكير الذى لا يتوقف القرآن عن دعوتنا إليه(*)- يجعلنا غير قادرين للشهادة على الرسالة الحية للقرآن الحى، الآن، وأبديًا، لله الحى القيوم.

القانون الإلهى، الشريعة، وحد بين كل المؤمنين. فهل يمكن أن يطبق البشر، فى القرن الواحد والعشرين، أحكام القرن السابع؟ إنها قضية خلافية تعطى صورة خاطئة للقرآن، ويعد هذا بمثابة جريمة ضد الإسلام.

إن «التطبيق الحقيقى للشريعة» ليست له أى علاقة مع الكسالى من أنصار الحرفية والنصية الذين يسعون إلى اختزال آيات القرآن التى تزيد عن ٦٠٠٠ آية فى بعض آيات الأحكام(**).

يفترض أننا نجد بعد مرور كل حقبة على القرآن، مبرر وجوده، المبدأ الذى نأمله، والظروف التاريخية التى يُطبق فيها. فكل منا يمكنه أن يجد ذاته فى السبيل الذى يهيئه القرآن ونوره. الشريعة، هى التى تشمل كل سلوك من سلوكياتنا كما توصى بها الإرادة الإلهية، المستمر انكشافها فى مجمل القرآن، بعيدًا عن القراءة الحرفية والنصية للآيات، بهدف استخلاص معانٍ معينة.

وتلعب الشريعة فى كل حقبة تاريخية دورًا محوريًا فى تحقيق التنمية للحياة فى

(*) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

(**) هناك أكثر من ألف آية فى القرآن تتحدث عن العلوم الكونية فيما يخص الإنسان والحيوان والنبات، والأرض والبحار والسماوات، كذلك هناك أكثر من ذلك مما يحض على مكارم الأخلاق.

المجتمع، وللعب هذا الدور فى مرحلتنا الحالية التى لن تتكرر مطلقًا ثانية، حيث بدأت أركان الحضارة الغربية فى الانهيار، لا يمكن اعتبار قانون الله غير قابل للتطبيق، فهى الوحيدة، إذن، التى تستطيع أن تخبرنا وترشدنا كيف نعيش؟، من الشرق إلى الغرب، آخذين فى الاعتبار ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨][*].

فى ضوء معانى الآيات السابقة، يكون الطريق واضحًا، بالنسبة للشريعة التى تمثل قيمة عالمية؛ لأنها تمثل قاسمًا مشتركًا بين جميع المؤمنين، وترسم لنا غايات السمو والشفافية، فى حين أن «البرنامج» أو «الطريقة» تمثل الوسائل التى تمثل فى كل لحظة تاريخية الطموح فى اتباع القيم السامية.

إن هذا التمييز بين الشريعة والتوجه الدينى والأخلاقى نحو الله، و«البرامج» و«الطرق»، قد أكد أن الله قد منح المسئولية للإنسان لكى يطبقها دائمًا فى ظروف واقعية فى مجتمعات حية متغيرة، وخلال الفترات الزمنية التى تعيش فيها. وهذا ما تشير إليه الشريعة التى تشير إلى الطريق نحو المصدر، كطريقة عظيمة لنقول: إنها الطريق إلى الله.

ويؤكد القرآن ويكرر أن الله له ملك السماوات والأرض، وأن البشر مستخلفون فى مال الله الذى أتاهم.

كذلك كما هو واضح فى الكتب الثلاثة أن «الله هو الوحيد الذى يشرع»، و«الله هو الوحيد الذى يعرف».

ويأتى التوصل إلى الوسائل التاريخية اللازمة لتحقيق هذه الغايات السامية ضمن مسئوليتنا للبحث فى كل زمن عن هذه الوسائل، مثلما أعطانا القرآن المثل فى جماعة المدينة، لمواجهة إفلاس النموذج الغربى فى التنمية، واختزال الحياة فى إشباع الغرائز، والتلذذ بالقوة والسيطرة.

(*) التفسير التقليدى هو أن العقيدة واحدة فى الأديان السماوية، وتختلف الشريعة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين، مع العلم بأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن.

إن هناك مشكلة للرهان على «الاجتهاد» كقراءة متجددة للقرآن، ومدى قابلية أحكامه لكل مكان وزمان.

قال القرآن عن صيام رمضان:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

عند سكان الإسكيمو، يمكن أن يمتد النهار أو الليل لمدة طويلة جدًا، إذن، التطبيق الحرفى النصى للآية سيقود حتمًا إلى الموت.

ويعتبر هذا بمثابة مثال متطرف على استحالة القراءة الحرفية أو النصية التى لا تأخذ فى الحسبان اعتبارات المكان، بدعوى رفض أى تفسير للقرآن لا يحترم بصورة عمياء الحرف أو النص(*). إن كل حالات التمييز التى تنتمى لتاريخ دولة ما أو مرحلة ما تجاه ما قد علمنا القرآن، غلب عليها قدر من الانحياز البشرى.

فالقرآن يذكر فى ثمانية مواقف، أن الله لا يميز بين الرجال والنساء، وإنما يميز بين من يفعلون الخير ومن يقترفون الشر.

عبر كل التقلبات التاريخية، أبطلت آية كل هيراركية بين الرجل والمرأة، مع التأكيد على المساواة والتكاملية ليس فحسب بينهما، بل وعلى وحدتهم ككائنات حية تدلل على وجود الله ﴿ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء: ١]، متساوين فى الكرامة، ومختلفين فقط فى وظائف كل منهما.

إن الانفتاح على الحياة العامة والحياة الروحية لكل الإنسانية، يمثل الطريق القرآنى لنهضة العلوم فى العالم الإسلامى.

(*) كذلك هناك القصة المعروفة عن الصحابى الذى نظر لخيطين أحدهما أبيض والآخر أسود طبقًا لما جاء فى الآية ﴿ ... حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ... ﴾ فقال له النبى ﷺ: «إن وسادك لعريض!» وذلك كناية عن أن الصحابى لم يفهم المعنى المقصود معرفته من الآية الكريمة.

ستكون دراسة الدين الإسلامى أكثر ثراء، عندما تندمج مع دراسة الروحانيات والأمور الجوهرية العميقة فى النفس البشرية.

وبالنسبة لضرورة القراءة الرمزية، فالقرآن ذاته قد أعطانا مفاتيح قراءته ومبادئ تفسيره، «التفسير» الذى يحمل دلالة لكل عصر، وتنطبق مبادئه على المشاكل الجديدة.

يتكلم الله فى القرآن، ويستخدم الرمزية للتدليل على سموه.

يعد هذا شرطًا أساسيّا لتجنب المشاكل التى تسببها القراءة الحرفية للنصوص. ولا يجب الخلط بين المثل لصياغة معنى، وما يعد حديثًا تاريخيّا، كإجابة مباشرة على سؤال.

ما يعد بمثابة قاسم مشترك بين الجميع، الرسالة الإلهية، التى عادة ما يقوم البشر بإفسادها، لكن علينا أن نعود ثانية إلى تعليم أكثر بساطة يتعلق بواحدنية الله .... «توحيد الله». فبدون هذه الوحدانية، سيقع العالم فى حالة من الهرج والمرج. ولا يختلف الحال بالنسبة لوحدة الإنسانية التى لا يجب لأى إنسان فيها أن يكون أسمى من الآخرين، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال وحدانية الله ووحدانية معنى الحياة التى يرشدنا إليها الله، من خلال العلامات (الآيات)، بدءًا من ظواهر الطبيعة وأحداث التاريخ، حتى نصل إلى أحاديث الأنبياء، ومسئولية الإنسان وواجبه كخليفة فى سبيل تحويل العالم وتغييره إلى مجتمعات إنسانية تسير وتهتدى بإرادة الله.

هذا الواجب الأساسى يتطلب من المسلمين قراءة نقدية للقرآن، بمعنى نقدى سواء للظروف التاريخية التى نزلت فيها الآيات، ولأى سبب، حتى يمكننا أن نعرف كيف نطبقها فى الظروف الجديدة، مستخدمين رابطة أخرى لتحقيق هذه الأهداف الأزلية. كما تعنى القراءة الرمزية، أننا يجب ألا ننسى أبدًا سمو الله وجلاله، دون معيار مشترك بينه وبين الإنسان، الذى لم يحدثه إلا بأمثال وحكم.

كثيرًا ما يصف القرآن الجنة بأنها تجرى من تحتها الأنهار، وبأنواع الطعام والشراب والفاكهة، وما إلى ذلك، برغم الحديث الذى يقول: «**أعددت لعبادى فى جنتى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب لبشر**».

١- يتطلب تحقيق أية نهضة سياسية وروحية للعالم الإسلامى: قراءة جديدة للقرآن من ناحية، والتحرر من أى تفسيرات سطحية يقدمها العلماء من ناحية ثانية.

٢- لا يجب أن تطرح مشكلة «الحداثة» فى العالم الإسلامى، انطلاقًا من أيديولوچية غربية.. تستبعد مشكلة «الغايات النهائية» الخاصة بالعالم الإسلامى وتبرر الوسائل التى تقود إلى القوة والثراء انطلاقًا من الاستعمار العسكرى والاقتصادى والثقافى الغربى لباقى أجزاء العالم.

بذلت جهود لنهضة الإسلام، خلال القرنين الماضيين.

بدأت حركة إصلاح كبيرة مع الأفغانى (١٨٣٨- ١٨٩٧م) الذى رفض أن يستعير أى شىء من الغرب باستثناء التكنولوچيا. فى حين أنه على الخريطة الروحية وغاياتها، تكون «**العودة إلى المصادر**» ليس كعودة إلى التقليد، ولكن كعودة إلى «**القرآن**» المقروء بعيون رجل معاصر. ستفتح هذه القراءة الجديدة للقرآن إمكانية إعادة الميلاد من جديد، فقد قال الله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. ولقد أثار هذا جدلاً مع التقليديين.

وقد ضمت حركة الإصلاح عددًا من كبار المصلحين، من أشهرهم الشيخ محمد عبده الذى قابل الأفغانى فى القاهرة فى عام ١٨٨٢م، وأصبح تحت تأثيره، الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية، وأشار فى «رسالة التوحيد» إلى قراءة مخلصة ورشيدة على حد سواء، تجيب على الموقف التاريخى للعالم.

استمر رشيد رضا على نفس الدرب فى مصر، من خلال جريدة المنار وخلفه حسن البنا (١٩٠٦- ١٩٤٩م) مؤسس «الإخوان المسلمين».

رجل الإصلاح هو الذى يعى الرسالة القرآنية المقدسة، التى تتطلب فى إطار حركة الإخوان المسلمين أن يستقر جزء كامل للمسيحيين.

قادته إرادته إلى «اختيار تفضيلى للفقراء» بين أوساط الفلاحين فى وادى النيل. أسس أولى جماعاته المرجعية، وأولى جمعياته التعاونية، وأول «بنوكه الإسلامية»، بنوك للفقراء بدون «فوائد» طبقًا للمنع الإسلامى «للربا» و«النقود المكتسبة بدون عمل»، والخلايا الأم الأولى لـ«حضارة جديدة» هاربة من «توحيد السوق»، من خلال نهضة البعد السامى الإلهى المقدس للإنسان من ناحية، وهمه بوحدة مبادئ «الشريعة» (الطريق إلى الله)، ومعارف القرن من ناحية ثانية، وعلى حد سواء. ويعنى هذا أنها قواسم مشتركة فى الديانات السماوية: الله هو الوحيد الذى يملك، الله الوحيد هو الذى يشرع، الله الوحيد هو الذى يعرف. لقد سمح كذلك للجيل الأول من «الإخوان المسلمين»؛ بأن يتعامل مع الملكية بنسبية (المالك لا يعدو أن يكون مديرًا مسئولاً)، والسلطة أو المبدأ القرآنى فى «الشورى» (يرمى إلى استبعاد كل ديكتاتور، إنسانًا كان أو حزبًا)، والمعرفة (فمعرفة الإنسان لا تكون إلا نسبية ومؤقتة).

تُسن القوانين من التشريعات الأساسية، مثل تلك التى عالجت قضايا الملكية الزراعية، ومن بينها الإصلاح الزراعى الذى قضى على احتكار كبار ملاك الأراضى الزراعية، لمصلحة من يعملون فى الأرض. كما هاجمت النظم الضريبية وارثى الثروات الضخمة، عن طريق الضرائب المباشرة وكذلك الضرائب غير المباشرة على الاستهلاك، والمؤسسات التشاركية لتجنب - كما نهى القرآن - تراكم الثروات فى أيدى طائفة، قبالة البؤس والشقاء للطائفة الأخرى الأكثر عددًا.

مثلت «العودة إلى المصادر» عند حسن البنا عودة إلى القرآن، الذى كثيرًا ما تم تفسيره بصورة غير موضوعية؛ ليناسب التفسير سلطة ما أو حاجة ما، فى زمان ما ومكانٍ ما.

تم اغتيال حسن البنا فى عام ١٩٤٩م، وقُتل واعتقل عدد من أنصاره ومريديه، تحت اسم «خطر الأصولية» من جانب السلطة.

الانفتاح على حضارات مختلفة، يساعد على مقاومة «توحيد السوق»، مثل لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية، ومثل الإخوان المسلمين.

لكن الإطارات التى تقدمها الحضارة البديلة، تقوم بتجريد البعد السامى للإنسان، وتستبعد الاختيار التفضيلى للفقراء. يبقى الحال للمسيحيين كما هو بالنسبة للمسلمين؛ لأن عملية التنمية مكبلة ومقيدة بـ«أصنام حية».

هناك ضرورة لإعادة قراءة القرآن، والتخلص من القراءات التى يقدمها العلماء التقليديون فى صورة مومياوات، من خلال الانفتاح على الإصلاحيين عبر العالم، مثل الشيخ بن باديس فى الجزائر، وفى باكستان محمد إقبال، وفى إيران علىّ شريعتى، وفى أمريكا نفسها فضل الرحمن.

لقد وأد ما نادوا به، بعد أن بُحتْ أصواتهم فى القرن العشرين، لكن الشعاع الذى أضاءوه، لا يجب أن يخفت، حتى يسمح بانطلاق النهضة، والاستيقاظ الروحى والسياسى للإسلام الحى.

فشل وإفلاس الجغرافية السياسية

من الملاحظ أنه برغم كل التحليلات التى قدمت فى فرنسا حول الإدارة الأمريكية الساعية إلى الهيمنة والسيطرة العالمية، والتى تمثل خطرًا على أوروبا والعالم، الذى طالما عانى من ويلات الاستعمار والمجاعة والبطالة، ومع استفحال مشكلة اللامساواة بين الشمال والجنوب - بل وداخل الدول صاحبة الامتيازات نفسها، نجد أن هناك من يملكون ومن لا يملكون - فلم تتم صياغة أية رؤية نحو العالم الذى نعيش فيه.

لقد تناول كل من الكتاب الرائد لكلود جوليان حول «الإمبراطورية الأمريكية» (١٩٦٠م)، ودراسة العالمة سوزان چورچ حول «علاقة لوجانو»

(٢٠٠٠م)، مراحل تدمير العالم الناجمة عن الهيمنة الأمريكية وتشتيت أوروپا، التى أصبحت بمرور الوقت مجرد ذيل استعمارى للولايات المتحدة، بعد أن أعلن موت أفريقيا وإذلال وخضوع أمريكا اللاتينية، مع بقاء آسيا بعيدة نسبيًا عن أيدى هذه القوى.

يصل تعداد سكان الصين إلى مليار ومائتى ألف نسمة، والهند حوالى مليار نسمة. ذكر موريس إلياس (الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد السياسى) فى تحليله العميق حول «العولمة» (١٩٩٩م) أن تبوأ الدول الآسيوية - وبالتحديد الصين - مواقع متقدمة فى الاقتصاد العالمى كمراكز أساسية للتنمية، يمكن أن يخلق فرصًا لزيادة معدلات النمو وتراكم الثروات فى الغرب(*)، ص٢٤٩.

دافع ناعوم تشومسكى عن نموذج آخر للتحليل، حول حالة العالم تحت «**سقف من حديد**» تهيمن عليه وتديره الولايات المتحدة. وقدم تشومسكى تحليلاً رائعًا على أمريكا اللاتينية بصفة خاصة، ولكن لم يقدم شيئًا تقريبًا بالنسبة لآسيا.

أما پول مارى دولا جورس، أحد أهم المحللين المشهورين ببعد النظر فى حقل الجغرافية السياسية، فقد أوضح فى كتابه «الإمبراطورية الأخيرة» (هل سيكون القرن الواحد والعشرون أمريكى الصبغة؟) - ١٩٩٦م، ويخصص فقط حوالى اثنتى عشرة صفحة لتحليل وضع الصين والهند.

نستطيع أن نصيغ ملاحظات مشابهة على كتب اهتمت بقضايا «أمريكا الشمولية» لبروجنوموردانت وتقديم بيرسالنجر ، ١٩٩٨م، «العالم الأمريكى المريض» تأليف فيليب كاسيه، عام ١٩٩٩م.

و«أمريكا.. المرتزقة» تأليف آلان جوكس، عام ١٩٩٢م، و«أوروپا.. غير

(*) يمكن القول بأن رأس المال الغربى والأمريكى يقوم بغزو الاقتصاديات الآسيوية الناشئة من خلال مشاركة رأس المال الغربى فى فتح الأسواق الدولية أمام المنتجات الآسيوية، والاستفادة من فارق تكلفة الإنتاج المنخفضة فى الدول الآسيوية وارتفاعها على مختلف المستويات فى الدول الغربية.

الرشيدة» تأليف فيليب سان روبير، عام ١٩٩٢م. و«اللانظام العالمى» تأليف كارفنتان، عام ١٩٩٣م، «والرعب الاقتصادى» تأليف ڤيڤيان فورستر (التى تعد أحد أشهر المتخصصين والمشهورين إعلاميًا، وبرغم ذلك فهى لا تقدم اقتراحات لحل المشكلات، أو تقوم بتحديد المسئولين عن هذه المشكلات) حتى المولعون بمذهب «الكلبية» يتحدثون عن «توليد الرأسمالية» على طريقة الأمريكى لوتواك الذى يتبنى منهجًا غير إنسانى للنظام الأمريكى، ويطمع فى فرضه على العالم بأكمله باعتبار أنه النظام الحتمى المرغوب والقابل للتعميم.

هذه بعض الأمثلة التى توضح النظرة «الرسمية» للعالم، بمعنى أن هناك قواعد للعبة يمكن التحكم من خلالها على ما يسمى «الجماعة الدولية».

لقد أدت خمسة قرون من الاستعمار إلى حدوث كارثة، تجسدت فى تقسيم العالم إلى عالم غير متوزان بصورة قاتلة.

فى الدول التى تم استعمارها، نجد أن الثقافات المعاشة التى توفر وتضمن قدرًا من الأمن والاستقلال الغذائى للسكان الأصليين، تم العصف بها من جانب المستعمرين الذى ألحقوا هذه المستعمرات كأذيال تابعة وخاضعة للدولة الاستعمارية الأم، خاصة من الناحية الاقتصادية، وفرض نمط أحادى الثقافة والإنتاج، أعطت فيه الوضع التفضيلى لشركاتها.

ولقد سمح تدمير التقنيات المحلية بفتح أسواق العمل لرجال الصناعة الدوليين. فى نفس الوقت الذى قاموا فيه باستخدام الأيدى العاملة بأجور زهيدة.

يُلَمِّح هنتنجتون فى كتابه حول «صدام الحضارات»، ١٩٧٧م، أن أهداف «الحضارة الغربية»(*) الرئيسية تتمثل فى هزيمة «الائتلاف الإسلامى

(*) تكرر - وبصفة مستمرة - فى الغرب القول بأن الحضارة الغربية قائمة على أسس يهومسيحية، حتى أصبحت كالبديهية التى لا تقبل النقاش، مع أن تلك المقولة لا تصمد أمام أبسط وأهون تدقيق، بل بمجرد قراءة العهد القديم والعهد الجديد، تسقط بمجرد النظر! وليس هذا موضوعنا، ولكن نذكر =

الكونفوشيوسى»، ومخددًا إيران والصين كعدوين رئيسيين ومحوريين للحضارة الغربية.

تتمثل الإجابة الأولى المباشرة للاستفزاز الدولى لهنتنجتون، فى الكتاب الرئيسى الذى ألّفه د. مهدى المنجرة حول الحرب الحضارية الأولى(*).

وتعتبر المشكلة المركزية اليوم، ليس فقط فى مستقبل الإمبراطورية الأمريكية وتابعيها الأوروپيين، لكن فى استعادة التوزان للعالم. وتتطلب وحدته إصلاحًا نحو ٥٠٠ عام من الاستعمار الذى تطرف فى عمليات السلب والنهب وإهدار الموارد، وكان وراء المذابح، وولد الانقسام الذى حكم به على نصف العالم بالجوع والبطالة والديون، فى ظل ظروف سياسية مجحفة يفرضها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى.

متى سيرد الغرب تلك الثروات؟

لقد سُرقت أطنان من الذهب والفضة من أمريكا اللاتينية، وملايين الهكتارات من الغابات تم الاعتداء عليها من جانب الولايات المتحدة، وسلب القطن وتم نهبه من الهند ومصر بواسطة انجلترا لمصلحة مصانع النسيج فى مانشستر.

والسؤال: كيف لكل من فرنسا وانجلترا وإسپانيا أن تقوم بإصلاح العار الاستعمارى الذى سببته فى المستعمرات السابقة، خاصة وأنه أصبح فى وضع

= هنا ما اعتبره العالم الغربى بديهية. كذلك أصبح من البديهيات فى العالم الغربى أن هناك المسيحية الغربية، وبها كل ألوان الطيف من الپروتستانتية والكاثوليكية، والكثير جدًا جدًا من النزعات والحركات الجديدة داخل الپروتستانتية، ولكن ينفصل كل ذلك، بما فيه من عجائب وغرائب (مثل طائفة المورمون التى لها كتابها وأنبياؤها المتتالين وحتى اليوم) عن المسيحية الشرقية، فتلك ديانة الشرق ... وما أعجب ذلك، فالمسيحية جاءت من الشرق، واليهودية أيضًا جاءت من الشرق!. وإذا دخلت أى مكتبة كبيرة فى الولايات المتحدة، فسوف تجد قسمًا للديانة المسيحية، وقسمًا للديانة اليهودية، ثم قسمًا للديانات الشرقية!

(*) نشرته مكتبة الشروق الدولية.

ميئوسًا منه، بعد أن أصبحت أفريقيا، على سبيل المثال، قارة غارقة فى الصراعات والنزاعات الدموية؟!

ومتى سيوضع حد للمبادلات التجارية غير المتكافئة التى تؤدى إلى ظهور حالات من الابتزاز المالى والإكراه فى تبادل المواد الخام والأولية بين القارات الثلاث، وتحديداً بواسطة حفنة النهابين والسلابين فى الغرب المتوطنين فى شبه الجزيرة الأوروبية وأمريكا الشمالية؟.

فى النهاية، متى ستدفع قيمة براءات الاختراع لمسحوق البارود والبوصلة والورق... وغير ذلك كثير، مما سمح ووفر الظروف لـ«نهضة أوروبا؟»؟.

إن إحداث التحول والتغيير يتطلب أولاً تغيير عقليات الجماعات المرجعية والمركزية التى ننتمى إليها، بحيث يتم إحياء أو توليد مصادر جديدة، تتسم بأنها أكثر سمواً وروحانية، من المصادر التى سبق واعتمدنا عليها، فى ظل ظروف تاريخية مناوئة أو مهيئة للتغيير، يجب علينا أن نحدد الوسائل والأدوات التى ستستخدمها للتعامل مع هذه الظروف لإحداث التحول المرغوب.

***

الفصل الخامس

نحو جغرافية سياسية للقرن الواحد والعشرين

نحو جغرافية سياسية للقرن الواحد والعشرين

والآن؟ فما هو بديل «العولمة»...

لا تشكل هذه الصفحات كتابًا..

إنما إعلان حرب ضد جيوش هذا النظام.

لقد تعاظمت قوة هـذه الجيوش اليوم، رغم أنها تعمل لحساب النخبة قليلة العدد التى تستحوذ على الجزء الأعظم من ثمار التقدم..

إذا استمر القرن الواحد والعشرون يسير وفق نفس الانكسارات، فإن ذلك سيكون امتدادًا للقرن العشرين (الأكثر دموية فى تاريخ الإنسانية)، نتيجة هيمنة قوى إمبريالية عمياء، نأمل ألا تدوم هيمنتها مرة أخرى لمدة مائة عام؛ لأننا بذلك سنكون فى الطريق لاغتيال مستقبل أطفالنا الصغار.

لكن لماذا نكتب ونتحدث عن الله؟

بالتحديد، لكى نجمع بعض المرجعيات والبذور والآمال، ونفكك ونهدم جراثيم الفكر المتولد عن خبرة قرن دموى مضى، وأيضًا لمساعدة من لا يرغبون أن يكونوا رجال نهاية الزمان، ومن يفكرون بأنهم يستطيعون أن يعيشوا بصورة مختلفة عن الطريقة التى نعيش بها.

فنحن فقط بذور للمستقبل.

لكى نعيش بصورة مختلفة.

نعم.. لكى نعيش.

فـالمسـتقـبل لم يكتـب بعد فى آسـيـا (أو فى أى منطقـة أخـرى) بواسطة المستهترين أو المدارس التجارية الاستغلالية. ولم تعش دول آسيا تاريخها حسب المخطط الذى صـاغـته أوروپا من خـلال: العـبـودية والإقطاع والرأسـماليـة والاشتراكية.

إن فهم عـالم اليوم يرتبط بمحاولة فهم خـصوصية أنماط ونماذج التنمـية فى الدول غير الغـربية. فعلى سبيـل المثال، إذا كان النظام السـوڤييتى قد صادر الأراضى الزراعية من بين أيدى كبار ملاك الأراضى الزراعية، فإن اليابان خلال عهد «الميجى» قامت هى الأخرى باتباع نفس الإجراء ضد كبار الإقطاعيين، فى ظل التحول التدريجى نحـو التصنيع وتغير طبيعـة العلاقات بين الأيدى العاملة ورجال الصناعة عـما كانت عليه مع كـبار الإقطاعيين، خاصة وأن مـؤسسات جديدة ومختلفة عن المرحلة الإقطاعية قد ظهرت.

من الطبيـعى أن نعرف أن هناك حالات يصعب تصنيـفها بصورة منهـجية، مثل الدول الآسيوية سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية. فالواقع يكشف أن هناك العديد من هذه الدول قـد تحولت إلى أذيال تابعة لكبرى الدول الرأسـمالية فى أوروپا أو الولايات المتـحـدة. فى حـين أن دولاً أخـرى، بالرغم من الفـتـرة الاستعـمارية التى عاشتها، قـد عرفت وطورت إمكانيات إبداعية سـمحت لها بالتطور والنمو بصورة مستقلة نسبيًا عن القوى الاستعمارية التى استعمرت هذه الدول لسنوات عديدة. يجب أن يتـسم التحليل هنا بالحذر فى حـالة دول مثل الصين وإيران واليابان والهند ومـاليزيا، ودول أخرى على درجات مـختلفة من الأهمية مقارنة بالدول السابق ذكرها.

تقدم مـشروعات الصين وإيران بديلاً حـقيقيّـا «للعولمة» التى تعنى بسط الهيمنة والسيطرة الرأسمالية بصورة شرسة وعنيفة من جانب الولايات المتحدة.

أصبـح من المؤكد أن الالتـفـاف حـول شراكـة الصين وإيران يمثل إنقاذًا لمستقبل الإنسـانيـة والأرض، ولكن تحيط بهـذا الإنقاذ ظروف تـغيـر وتحـول غـير مـؤكـدة وتوازنات غير مستقرة، للحد الذى يجعل من الصعب علينا تحديد اختيارنا.

وأصبح من المستحيل خارج روسيا اليـوم لأى شخص أن يتنبأ عن مستقبلها باليقين، فنحن نسـعى لأن نضع الخطوط الأولى والأساسية لبعض الفـرضيات الخاصة بالعمل عـلى هذه الدول الآسيوية التى تمر بأوضاع تغير وعـدم استقرار بصورة كليـة. نجح الغرب خلال قرون فى التـحكم فى مستقـبل تلك البلاد، واستدعى الأمر أحيانًا استخدام أسـاليب جهنمية، مثل شن حرب للأفيون ضد الصين(*)، أو حملة بحرية بقـيادة پيرى ضد اليابان، أو الاحتـلال المباشر لجزر

(*) تشمل حرب الأفيون ضد الصين حـربين: نشبت الأولى خلال الفترة من ١٨٣٩ -.١٨٤٢م وأعقب ذلك توقيع معاهدة نانكين. أما الحرب الثانية ضد الصين فكانت من ١٨٥٨ - ١٨٦٠م.

تعود جذور الحرب الأولى إلى عام ١٧٩٣م.. حيث كـانت الصين تنتهج سياسـة الانغلاق فى تلك الفترة، بهدف تحقيق الاكتفاء الذاتى اقتصاديًا، والاستقلال السياسى والعسكرى عن الإمپريالية الغربية.. وكانت انجلترا ترغب فى الوصول إلى الصين بأى ثمن، فتـقدمت بمبادرة ديبلوماسية تتلخص فى حرية التـبادل التجـارى بين انجلترا والصين، وفتـح جميع الأبواب أمـام المنتجات البـريطانية، إلا أن الإمبراطور الصينى رفض المبادرة دفاعًا عن استقلال بلاده وحماية لمنتجاتها الوطنية.

وكان بعض التـجار الإنجليز يصلون إلى الميـناء الصينى المفتـوح لهم فى كانتون، يشـترون من هناك الشاى والحرير والبـورسلين والفضة ومعادن أخـرى، وكان عليهم أن يجدوا وسـائل جديدة بجانب النقود لتسـوية معاملاتهم مع التجـار الصينيين، ولتحقيق أعلى ربح وأقل تكـلفة، تفتق ذهنهم عن وسيلة شيطانية، ألا وهى تصـدير الأفيون إلى الصين وتسويقه هناك، وساعد التـجار فى تنفيذ ذلك أن انجلترا كـانت قد نجحت فى احتـلال الهند القريبة من الصين، واستـخدمت أراضيهـا فى زراعة الأفيـون، وتصديره إلى الصين بمعاونة بعض الـتجار الصينيـين المتحالفين مع الإنجليـز، حيث إنهم وجدوا في تجارة الأفيون الطريق السريع لتحقيق الثراء الضخم. وتدفقت شحنات الأفيون إلى الصين وكانت النتيـجة إدمان العديد من الموظفين ورجـال الجيش وفئات أخرى - تعـاطى الأفيون - مما أثر بالسلب على الصحة العامة للشعب الصينى، وعانى الميزان التجارى الصينى عجزًا هائلاً مع انجلترا.

وقد دعى ذلك إلى قـيام الإمـبراطور الصينى فى عـام ١٨٣٩م بإصدار قرار بـاعتبـار الأفيون سـمًا اجتماعـيًا وأخلاقيًا ويضر بالاقـتصاد والسيادة الصينيـة، ونص القرار على الحكم بالإعدام على من يتعاطى أو يتاجر فى الأفيون، وأرسل الإمبراطور مبعوثًا إلى إقليم كانتون لتنفيذ السياسة الجديدة.

قام المبعوث الإمبراطورى بحرق شحنات كبيرة وصلت ميناء كانتون بواسطة تجار إنجليز وبعض التجار الأمريكيين، على الشواطـئ الصينية للميناء، ووجد ممثل الحكومـة الإنجليزية فى الصين أن فى ذلك تهديدًا للتجـارة التى يرتزق منها التجار الإنجليز، وطلب من الحكومـة فى لندن التدخل العسكرى، لضمان استـمرارية هذه التجارة المربحة لبـلاده. وبالفعل بدأت انجلترا فى غزو الصين خلال مـوقعة =

«تشوين. بى».

«الهند الصينية» من جانب فرنسا، واحتــلال هولندا لأرخبيل إندونيسيا. تبحث هذه الدول اليوم عن مسـتقبل خاص بها بعـيدًا عن هيمنة القوى الاستـعمارية على خريطة الامتـداد التاريخى والثقافى المستقل. إن تحـقيق الاندماج بين هذه الدول سيسـاعدها - وهى قادرة على تحقيق هذا الاندماج - على تحـقيق رخاء الإنسان وسـعادته، دون أن يقود ذلك إلى تدمـيره، مع إمكانية الاستـفادة من بعض التقنيات الغربية.

لقد أصبحت حالة التردد وبدائل الهيمنة الـسياسية فى اليابان والهند وماليزيا على سبيل المثال تعبر عن أزمات للتوجه، حيث نخاطر بمستقبل العالم. فالميزان يميل إلى التقليد والمحـاكاة لأمراض وآفات الغرب المتأمرك. من هـنا تبرز أهمية خلق نقطة توازن وإحياء «للقيم الآسيوية» الأصلية، من أجل التحكم فى القوى الجديدة وتكنولوچياتها ووضعها فى خدمة المجتمع المحلى.

= قوبلت الحرب ضد الصين فى بريطانيا بين مؤيد ومـعارض، إلى أن حققت انجلترا مكاسب عديدة، منها سـقوط مدينة دين غـاى فى الشمال واحـتلال كانتون وآمـوى وشنغهاى، ثم وقَّع الإمـبراطور الصينى أول مـعاهدة مع الغـزاة الإنجليز فى ٢٩ أغـسطس ١٨٤٢م، عرفت باسم معـاهدة نانكين، واعتبرت هذه المعاهدة من المعاهدات الجائرة واللامتكافئة بين الصين والقوى الغربية الإمبريالية.

أما حرب الأفيون الثانية ضد الصين فكانت بدايتها أنه نتيجـة لتوقيع الصين لبعض المعاهدات الجائرة، فقد تعـرضت لظروف اقتصـادية متردية لعدة سنوات، وكـان جيل الشباب من الصـينيين ينظر لهذه المعاهدات على أنها استعمارية ظالمة، ومع استمرار تهريب شحنات الأفيون إلى الصين بواسطة بعض البحارة الإنجليـز، قام العديد من الثائرين بتنظيم صـفوفهم، وتوجيـه ضربات موجعة ضـد البحارة الإنجليز، واتخـذت الحكومة الصينيـة فى بكين موقفًـا متشددًا للدفـاع عن كرامتـها الوطنية، اعتـبر القنصل الإنجليـزى فى الصين أن ذلك إهانة للسيـادة البريطانية، فكانت الحـرب الثانيـة ضد الصين بسبب الأفيون.

وفى هذه الحـرب تدخلت فرنسـا مع بريطانيا ضـد الصين، وقامت القـوات الإنجليزيـة والفرنسـية المتحـالفة بالتـوغل فى الأراضى الصينيـة، وساعد فـى ذلك الدعم الذى كان يقدمـه بعض الروس والأمريكيين.

(ملخص دراسة لـ «إدواردو راموس» حول حرب الأفيون الأولى والثانية ضد الصين)

تعانى أوروپا من البطالة والاستبعـاد، إلى الحد الذى سبب تداعيات وصلت لدرجة الكارثة التى عرفت باسم كوارث «**التنين**» بدءًا من عام ١٩٩٧م، حيث كشـفت التطورات ليس فقط عن «**أزمة آسيوية**»، ولكن عن «**أزمـة للرأسمـالية العالمية**».

لقد عاشت الهند قرونًا تحت نير الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية فى ظل المجاعـاتِ والانقسامات، وقـد غزاها الاستعـمار متعـاملاً مع جماعـاتها العرقية والدينية وفق قاعدة «فرقْ تسُدْ» بين المسلمين والهندوس.

كما عانت ڤيتنام من الاستعمار الفرنسى الفج، ثم عانت من قنابل الناپالم الأمريكى، وهكذا عانت ڤيتنام مرتين من الوجه الاستعمارى القبيح للغرب.

وتكشف لنا حالة اليـابان، أنها حاولت حـماية «**ثلاثة كنوز**»: «**وظيفـة مدى الحياة، ومرتب حسب الأقدمية، ونقابة للشـركة**»، من خلال نموذج للتنمية يخالف العقيـدة الليبرالية القـائمة على «**المرونة**»، التى تتطلب «**إنتاجـية**» على الطريقة الأمـريكية، حـيث يتم معـالجة العـامل والموظف على أنه يمكن التـخلص منه وتسريحه أو شراؤه، حسب ظروف الشركة وبالمثل، يعامل الموظف شركته.

أصـبح من الـواضح أن الأمـر فى عـام ١٩٩٧م، لا ينصـرف إلى أزمـة «**آسيوية**». محاولات كل من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وفق سياسة «**دق مسامير جحا**»، من خلال منح القروض المرتبطة بشروط سياسـية مجحفة، برزت فى بداية الأمـر على الحالة المكسـيكيـة، والضغـوط التى تعرضت لهـا بدعوى الأخذ بسياسة «**التبادل الحر**» بين شركاء غير متساوين، للحد الذى أدى بأن تقوم الدول الكبـيرة - التى فى حجم أسمـاك القرش - بافتـراس الأسماك الصغيرة بكل «**حرية**» دون أى قيود.

حلول إنسانية

إن الفـشل الذى أصـاب الكوكب بصـورة قـاتلة، يدفع إلى التـسـاؤل عن المسئولين عن هذا الضياع.

ويعود هذا الضياع والفشل إلى السلطات العليا التى انحصرت فى أيدى حفنة من رجال الأعمال فى حجم أسماك القرش، قامت بإدارة الاقتصاد بصورة رديئة، بلغت حد الكارثة، وتعمدت اتباع ميكانزمات عمياء فى إدارة السوق.

لم يعد لدينا إلا القليل من الوقت لتحديد هدفنا بوضوح ورسم الخطوط الأولى والأساسية اللازمة لإنقاذ الكوكب الذى نعيش عليه.

***

أصبحت الحلول «ذات الوجه الإنسانى» بديهية بعد أن تعرض العالم للانكسار، من أزمات البطالة التى ضربت مئات الملايين، وأمثالهم من المستبعدين والمهمشين، بالإضافة إلى ملايين من ضحايا الحروب العالمية والإقليمية والأهلية.

إن التأقلم على هذه الانكسارات والانحرافات، يستلزم توظيف مناهج وطرق للعنف المادى والتخدير المعنوى والأخلاقى، يقوم بصياغتها وتنفيذها الفاسدون فى القرن الجديد، مثلما كان الحال فى القرن السابق.

تكشف الإحصائيات الرسمية عن الحالة الأمريكية (وهى النموذج العالمى المفروض اتباعه) أن هناك عجزًا هائلاً فى الميزان التجارى، وتجاوز إجمالى الدين العام لمستويات الأمان.

الدين العام

ارتفع إلى ٤ تريليون دولار فى عام ١٩٨٠م.

وإلى ١٤ تريليون دولار فى عام ١٩٩٠م.

وإلى ١٦ تريليون دولار فى عام ٢٠٠٠م.

كان حوالى ١٥٠ مليار دولار فى عام ١٩٩٥م.

وارتفع إلى ٢٥٠ مليار دولار فى عام ١٩٩٩م.

وواصل الارتفاع حتى بلغ حد ٤٥٠ مليار دولار فى عام ٢٠٠٠م.

تكمن النقطة المركزية - الخاصة بضعف النظام - فى ضرورة مهاجمة حامل الإيدز للعالم، إذ إن الاقتصاد الأمريكى لا يستطيع أن يتحمل فقدان مليار أو مليارين من العملاء، خاصة فى القطاعات الاقتصادية الحساسة التى تضم: **التسليح والسينما والمعلومات وشبكات «المواد الغذائية» مثل الكوكاكولا أو ماكدونالدز.**

من الطبيعى، أن يتحمل كل إنسان المسئولية الشخصية عن تصرفاته والمخاطر الناجمة عنها، مع الأخذ فى الاعتبار أن **بطاقة الانتخابات لن تحل المشكلة**. إن طموحات «الديمقراطية الغربية» ليست فقط مزيفة من حيث النتائج المنادى بها (على الرغم من أن نسبة الغياب عن التصويت تصل عادة ٥٠٪، نتيجة اعتقاد الناخبين بعدم جدوى أصواتهم). نذكر هنا على سبيل المثال، أنه فيما يخص حوالى ٧٠٪ من القرارات السياسية فى فرنسا، فإن البرلمان يكون مستبعدًا، حيث يتم هذا فعليًا بالتنسيق أكثر مع بروكسل وواشنطن، حيث يتم الاتفاق مسبقًا بين الاتحاد الأوروبى فى بروكسل والإدارة الأمريكية فى واشنطن على الخطوط العامة للسياسة المطبقة فى دول الاتحاد.

تكشف الحقيقة العملية أن من يتخذ القرارات اليوم، ليست الدول، **وإنما شركات السوق**، وأن دور «رؤساء الدول» و«رؤساء الحكومات» يقتصر بدرجة أكبر على لعب دور المساعدين التنفيذيين. إن المفاهيم التقليدية تاريخيًا «اليمين واليسار» قد انتهت مدة صلاحيتها وفقدت دلالتها، عندما أصبح «العمالى» تونى بلير مجرد مهرج على خطى السيدة تاتشر اليمينية المحافظة، على الرغم

من العداء والتنافس الانتخابى والشخصى الحاد بينهما، إذ ينتمى كلٌّ منهما لمعسكر أيديولوچى مختلف. لا يختلف الحال كثيرًا بالنسبة لسياسات أىٍّ من شيراك أو جوسبان، فهى فى نهاية المطاف تخضع لتوجيهات وتعليمات القيادة القابعة على الشاطئ المقابل للمحيط الأطلنطى فى واشنطن!!. ويسير المستشار الألمانى «الاشتراكى» على ذات الدرب. لم يعد يحلم بأن يكون المستشار الأول الذى يعمل فى خدمة مصالح أوروبا العليا، بل أصبح يعمل فى خدمة السياسة الأطلنطية والمغامرات العسكرية للولايات المتحدة، بمعنى أن المستشار الألمانى يلعب دورًا فى مسلسل استمرار الهيمنة الأمريكية عالميًا.

ويجب كذلك أن تعرف الشعوب أنه على مستويات أكثر وضوحًا وأقل ضررًا، أنه فى كل مرة يقومون باستهلاك زجاجة كوكاكولا (مع بروز ظاهرة التعود والتبعية على استخدامها) يضيفون الملايين من تراكم الثروات لإحدى حلقات الشبكة الأمريكية التى تقود العبودية والهيمنة من ناحية، وتدمير أحد أسس استقلالية هذه الشعوب من ناحية أخرى.

على أى حال، يقع على «المجتمع المدنى» عاتق تأسيس «السلطات المضادة»، حسب الأمثلة التى ذكرت سابقًا فى دول العالم الثالث، ومع «الجماعات المرجعية»، وعلماء دراسة لاهوت التحرير الذين ظهروا فى أمريكا اللاتينية.

فعلى سبيل المثال، يجدر أن تتم الإشارة إلى أعمال وإنجازات الأب فراجوسو فى المنطقة الأكثر فقرًا فى البرازيل «لوسيرتاو»، حيث تخيم وتتوطن أسوأ الظروف (ديكتاتورية عسكرية)، وبرغم ذلك فقد نجح فى تنظيم هذا الجزء من الإقليم، من خلال الاعتماد على المتطوعين من كل الاتجاهات والمناطق فى الإقليم. اتسم هذا التنظيم بدرجة من الاستقلال، مكنته من تحقيق إنجازات عديدة، منها بناء الطرق وحفر آبار المياه وبناء المدارس. وفى سيرلانكا، قاد ائتلاف الأخوة بين البوذيين والمسيحيين حركات المقاومة ضد السلطة الرسمية. كما أنشئت بنوك تعاونية فى القرى الفقيرة لوادى النيل بواسطة حسن البنا، قبل

أن يتم اغتياله، وقد كان ذلك من الأسباب التى أدت إلى التفاف الفقراء والضعفاء حوله. أو فى مثال تجمع منتجى الموز فى أفريقيا حول تامباكوندا؛ لكى يعملوا على التخلص من البؤس والشقاء الذى توطن، منذ قديم الزمان، فى البلد.

لقد أدت هيمنة الاستعمار لمدة خمسة قرون، وما قام به صندوق النقد الدولى من تخريب لمدة نصف قرن، إلى نتائج وخيمة نالت من أرزاق وحياة أعداد هائلة من البشر فى الدول النامية. إن التغلب على هذا الدمار، يستوجب الوصول إلى مضمون السر الخفى، الذى قاد غاندى إلى التغلب على الاستعمار.

إن «الجماعة المرجعية» التى يتم تأسيسها على قواعد إنسانية تستطيع أن تصنع أو تساهم فى صنع مستقبل ذى وجه إنسانى، من خلال وحدة الاعتقاد أيّا كانت فى الإنسان أو فى الله، متجاوزة الحدود الوهمية للديانات والأحزاب الإنسانية.

ويعد هذا بمثابة **نسيج اجتماعى جديد** يمكن تحقيقه وصناعته، على الرغم من التمزق والجروح وبحور الدم التى تغرق فيها العديد من المجتمعات النامية، منذ قرون مضت، وتحديدًا فى القرن الماضى.

ولا يمكن اعتبار صناعة النسيج الاجتماعى الجديد، أو المستقبل ذى الوجه الإنسانى، مهمة سهلة أو قابلة للتنفيذ بسرعة، لكن من المهم أن نبدأ من اليوم العمل فى تنفيذ هذه المهمة، قبل أن يصبح الوقت متأخرًا، على أن يكون تنفيذ هذه المهمة مغزولاً مع احترام وحماية كرامة الإنسان.

فمنذ مئات السنين، ساهمت التضحيات والإبداعات فى خلق روح للإنسانية.

هل سنعرف كيف نعطى جسدًا لهذه الروح؟

***

إن الحل الوحيد - الذى لا يمكن أن يكون وهميّا - يتمثل فى الربط الدقيق بين مشكلتى **البطالة والجوع**، مع البحث عن إمكانية الوفاء بالتزامات الأغلبية من شعوب العالم الثالث.

فى نفس الوقت، مشكلات البطالة والجوع تفرض توجهًا وحيدًا، هو القادر على تقديم إجابة عميقة لمشكلات الهجرة.

إن السياسة الغربية، والظلم والاستبداد الناجم عن الديون وخدمة فوائدها، والتبادلات التجارية غير المتكافئة، وكذا الإرادة العنيدة من جانب الدول الاستعمارية للاحتفاظ بالمستعمرات القديمة كعناصر تابعة وخاضعة فى السوق العالمية الداروينية التى تسيطر عليها وتتحكم فيها قوانين الغابة، حيث يفترس القوى الضعفاء، وحيث تستحوذ أقلية من سكان الكوكب على كل الثروات، يصبح من الصعب تجنب تتابع وتصاعد حركة الهجرة التى تمثل نوعًا من المواجهة الهزلية والاستهزائية لظروف الحبس والاستبعاد والقمع التى تعانى منها دول العالم الثالث.

يتمثل الحل الحقيقى فى تحقيق نوع من استعادة التوازن المفقود فى الكوكب، حتى لا يختل توازن السفينة التى تحمل الكوكب، وحتى لا تغرق.

***

العدو الرئيسى تم تحديد هويته، ونجحنا فى تحديد هدفنا بوضوح، وأصبحت قضية التحالفات تطرح بطريقة جديدة.

وأصبح من المناسب أن نتوصل إلى أسلوب جديد خاص بالمحيط الاجتماعى الذى نعيش فيه بدلاً من الأسلوب العتيق الذى ارتبط بالتقسيم إلى يمين ويسار. لم يعد يسمح هذا الأسلوب القديم بإمكانية محاربة العدو الرئيسى أو تحديد أهدافنا بوضوح؛ لأنه ولد وتطور فى سياق مغاير عن معطيات مجتمعاتنا فى الحقبة الحالية.

فى القرن التاسع عشر، بعد الثورة الفرنسية، ظهر مفهوم «اليسار» وكان يحمل دلالة ومضمونًا تاريخيًا واضحًا جدًا. وهدف الثوار الفرنسيون من وراء ثورتهم، القضاء على عصب الطبقة الإقطاعية والكنيسة التى وفرت التبريرات الأيديولوجية لكل الطبقات المحافظة من برجوازية وإقطاعيين.

خلال النصف الأول من القرن العشرين، بدأت الطبقة العاملة فى تنظيم نفسها وصعود نجمها واكتساب المزيد من القوة. وأصبح اليسار من جديد حزب حركة يعمل ضد الطبقة البرجوازية التى بذلت أغلى ما لديها للحفاظ على الامتيازات التى اكتسبتها منذ عشرات السنين. لقد كان هناك قاسم مشترك بين كل اختلافات الاشتراكية، حيث كانت جميعها ضد اللعبة العمياء لقوانين السوق التى ولدت ثروات غير بناءة، وفاقمت اللامساواة بين فئات الشعب، وضاعفت أعداد المستبعدين، بصياغة وتنفيذ لعبة حرة للقوانين الاقتصادية، من جانب دولة أصابتها الشيخوخة، فى ظل ضعف برامج الحماية الاجتماعية للشعوب، مقابل السيطرة والاستغلال من جانب أسياد الأنشطة المالية، من بين أوساط رجال المال والأعمال المضاربين.

إن هذا الفارق بين اليمين واليسار فى السياسة الداخلية للأمة لم يعد يتناسب مع عمليات إعادة تكوين القوى والتحالفات فى مواجهة مؤسسة خارجية تقوم بإدارة الهيمنة. لم تتحد الأحزاب المختلفة فى أوروبا ضد هتلر، وبالتالى لم تسفر هزيمته إلا عن ظهور قوة ثانية. فقد جاءت الولايات المتحدة لتفرض سيطرتها وهيمنتها عليهم من جديد، وتخرج أكثر ثراء وقوة من الحرب، فى مقابل أوروبا والاتحاد السوفيتى اللذين تم إغراقهما فى بحور من الدماء والركود الاقتصادى.

أعيد تشكيل الأحزاب مع استمرار العلامات الأصلية القديمة لليسار، مثل الحزب الاشتراكى، أو من خلال قدامى القادة الكاثوليك، الذين لم يصلوا إلى موقف توفيقى مع هذا الائتلاف. لقد استهدفت هذه القوى فى بادئ الأمر استبعاد ديجول، ثم الانفصال عن الولايات المتحدة التى اشترطت قبل تقديم مساعدات خطة مارشال لفرنسا، استبعاد الشيوعيين من تشكيل الحكومات فى فرنسا وإيطاليا وبلچيكا.

أشار موريس توريز إلى أن مفاهيم اليسار قد انتهت مدة صلاحيتها، وأن

البديل الأساسى أصبح متمثلاً فى سقـوط الهيمنة الأمريكية من الآن فصاعدًا، ومواجهـة أية محاولات للقمع الثقـافى والاجتماعى من قـبل الولايات المتحدة والدول الغربية التابعة لها.

ظهر القـمع الاجتماعى وتم تكريسـه تاريخيّا - وتنازليّا - من خـلال إنشاء اتفاقية الجات وصندوق النقد الدولى والبـنك الدولى، بعد اتفاقية بريتون وودز التى كرّست من هيمنة الدولار على اقـتصاديات العالم الرأسمالى ومسـتعمراته التى تدور فى فلك الاقتصاد الأمريكى ومعدلات نموه. يجب أن تكون لنا ثقافة مستقلة عن الثقافة الأمريكية العنيفة.

لقد تطور المـوقف إلى الأسوأ بعد أن تم قـبول الهـيمنة الأمريكـية، برغم محـاولات الاستقلال الفـرنسية عن الهـيمنة الأمريكيـة التى بدأها ديجول، ثم انسحـاب القوات الفرنسيـة من حلف الناتو، ومقاطعـة إسرائيل بعد عمليـاتها العدوانية. وقد كانت هذه سياسة الأحـزاب اليمينية واليسارية على حد سواء، حال وصولهـا إلى السلطة وتشكيل الحكومة، بهدف الخروج من نـطاق الهيمنة الأمريكية.

لقد تمت صياغة الصـورة المسبقة للتحالفات الجديدة فى تجمع ماستريخت، بهدف تقوية الدعم الأوروبى لحلف الأطلنطى (الناتو).

تمثلت المشكلة الوحيدة التى اعترضت التصويت على معاهدة ماستريخت فى السيـاسة الخارجية، حيث إن نصف شـعبنا منشغل واقعـيّا بمشكلاته الداخلية، خاصة البطالة والهجـرة. إن تبعية أوروبا للولايات المتحدة، وسـير أوروبا قدمًا على درب الأمركة سيزيد من الوضع خطورة وتردى.

من الممكن فى ظل هذه الظروف والمـعطيات، أن نؤكـد أنه لا يمكن حل أى مشكلة فى الإطار الوطنـى فقط، أى أن حل الأزمة التى نمر بهـا يتطلب ظهور نظام عالمى جديد.

يجب أن يتركز الجهد الأساسى على الإيضاح النظرى: من خلال طرح مشكلاتنا بصورة راديكالية جديدة، وعالمية، تشرح كيف نستطيع فى هذا السياق الدولى أن نتعامل مع الأحداث؟

ولن يكون نضالنا فعّالاً إلا إذا، تحلينا بالوعى كفرنسيين نعمل سويًا لحل مشكلاتنا الطارئة والحساسة، بمعنى أنه يجب علينا أن نناضل من أجل التخلص من التبعية والشروط والمتطلبات الأمريكية التى تفرض علينا.

إن أوروپا المتأمركة وسيدها الإقطاعى المتجسد فى الناتو، يشكل أداة لمفهومى الطفيلية والانحطاط، كغلاف للسياسة الأوروپية خاصة على المستوى الدولى.

إن مفهومنا عن فكرة الأمة يجب أن يكون واضحًا، خاصة أن ولادته قد صاحبت تطور ونمو الرأسمالية كمطلب للطبقات البرجوازية التى نادت بتكوين سوق منفصلة ومحمية من جانب الدولة والجيش: الوحدة الألمانية فى القرن التاسع عشر بدأت «باتحاد جمركى». كما أن ملوك فرنسا أخذوا على عاتقهم مهمة حماية الأسواق ضد التقسيم الإقطاعى الذى كان يهدد وحدة فرنسا. إن التبرير الأيديولوچى للانفصاليين يعد بمثابة نبش «تاريخى» للقبور، خاصة وأن حالة الوحدة الوطنية التى أنجزت مؤخرًا، سبقتها «صورة ذهنية مسبقة» عن كل من أبدية العرق والجغرافية أو الدين، التى لا يمكن تجاهل أىٍّ منها كانتماءات أولية وبديهية تشكل مركزًا استراتيجيًا تدور حوله عقلية وثقافة الجماعة المرجعية.

وتتسم الأطر الوطنية بأنها تعمل على تطوير ثقافات تحفز طرقًا خاصة للحياة، وعلاقات أفراد الشعب بالطبيعة والجماعة والمستقبل والتنوع الإنسانى الذى يعد بمثابة ثراء لهذا المجتمع. فالأوروبى اليوم أكثر غربة من شكسپير وبيتهوفن وسيرفانتس ورابيلياس ودانتى ودوستويفكسى، الذين أصبحوا غرباء فى مجتمعاتهم؛ لأنهم رفضوا لثقافاتهم أن تغرق.

إن تبرير الهيمنة قد قاد إلى تأكيد أى تقليد ضد الثقافة الأوروبية، ونفى كل الهياكل والمؤسسات الأوروبية الداخلية، بما فى ذلك الفنون من رسم وموسيقى وأدب.

إن الحديث عن الانحطاط والانقطاع واللانظام العالمى، وخروج أوروبا المتأمركة من تحت العباءة الأمريكية، يجب أن يستكمل بمقاطعة ثقافية، بدءًا من مقاطعة الأفلام إلى المشروبات الأمريكية، مما سيعد بمثابة ضربة اقتصادية يتم توجيهها إلى أسياد نموذج الهيمنة، يمكن أن تقود إلى حالة من التفكك والركود الاقتصادى، وستكون بمثابة هزيمة للعملاق الجبار ذى الأرجل الصلصالية.

إن الانغلاق تجاه انحطاط وانكسار النظام العالمى يجب أن يفتح منفذًا فى اتجاه العالم الثالث الذى يعادل نحو أربعة أخماس العالم، ليس فقط على مستوى المنتجات والتجارة، ولكن أيضًا ثقافيًا - خاصة وأن الاستعمار لم ينجح فى تدنيسهم أو نفيهم تاريخيًا - علاقات مع البشر الآخرين الذين لم يصبح بينهم تنافس يحول الإنسان إلى «ذئب بشرى» فى مجتمع ما زال كل عضو يشعر بأنه مسئول عن الآخرين. وبذا تصبح العلاقات مع المستقبل علاقات لم ترضخ بعد للاستقطاب المتفاقم لمفهوم التنمية الغربى، وما يتبعه من تسلط الأفراد والشعوب، وإنما تتعلق بإحياء معنى جديد للحياة والتزاماتها.

إن هذا الإحياء - غير المستمد من الغرب - يمكن أن يساعدنا على صياغة رؤية مستقبلية جديدة للتاريخ، وبذلك نستطيع أن نشكل «تحالفًا جديدًا»، لم يعد «تحالفًا مقدسًا»، ولكنه تحالف يرتكن إلى أسس جديدة عند كل من الرجال والنساء من البشر الذين يدافعون عن مفهوم جديد للعالم، مختلف تمامًا عن مفهومنا الدموى القديم.

لقد طمعت القوى الاستعمارية الغربية فى تملك الحقيقة المطلقة وفرضها على باقى العالم، وعلينا أن نعترف فى سياق ما نطلق عليه «الأصولية» أن أى رد فعل دفاعى عن هوية مجتمعات دول العالم الثالث، مقابل أصوليتنا الابتدائية والأساسية، كانت نتيجته، ومنذ خمسة قرون مضت، تشويه هوية الآخرين.

بدون أدنى شك، يقوم «الأصـوليون» فى العالم الثـالث بعمليات معـارضة للهيـمنة الغربية. ويتسم هؤلاء «الأصوليون» عـادة بالتمرد والثـورة والماضوية والمثالية، محتـذين فى نشاطهم بحضاراتهم السابقة فى مواجـهة عمليات القمع والعـدوان الاستـعمـارية. ويرفـضون ظروف غـياب مشـروع بديل ذى صلة بالمستـقبل وليس الماضى. يطرح «الأصوليـون» أسئلة حقـيقيـة، ولكنهم لسوء الطالع لا يقدمون أية إجابات.

فى هذا السـياق الضـيق، يجب أن نعتـرف أن مسئـوليتنا: الخـداع والوهم الاستـعـمارى الذى يمثل النموذج الحضارى الغـربى، لم يترك للمستـعـمرات ما تستـفيد منه، ووقـعت المستـعـمرات فريسة للـخلط والارتباك والاضطراب بين التحـديث والتغريب، كخـيار يفرض أحـد بديلين، إما تقليد الغـرب أو تقليد الماضى، وكلٌّ من الخيارين يعد بمثابة طريق نهايته غير معلومة(*).

فى هذا الإطار، يستـلزم الأمر طرح مفـهوم واضح للتضـامن والتكافل مع العالم الثالث، العـالم الذى رفض نظريًا وحارب عمليًا العولمة التى اسـتهدفت تحويلـه إلى أسواق وعمـالة رخيـصة وخـدمات، مع بطالة مـتفـاقمة تـتزايد خطورتها، حيث يستعبد البعض القليل.. كل الآخرين.

بصفة عامـة، يجب أن يوجه كل نقد للنظام القائم، من خلال مـبادرة تقدم حلول بديلة. إن هذا مـا يفترض أن يتم تـطبيقـه على حد سـواء فى الأسواق الجديدة (من خلال رابطة لصيقة ودقيقـة مع النقابات والتعاونيات أو الجماعات المرجعيـة فى العالم الثالث)، محـددة احتياجـاتهم وإمكانياتهم، **ومشـروعات واقعية ملموسة للاهتداء والاستجابة إلى هذا الطلب.**

إن إمكانية وسلطة الاقتراح هذه يجب أن تنتهى إلى توجيه الاستثمارت على

(*) هذا موضوع كتاب «الإسلام والعالم» للدكتور محمد خاتمى رئيس جمـهورية إيران، ونشرته مكتبة الشروق الدولية فى ثلاث طبعات.

الخريطة الاقتصادية، وتوجيه المساعدات والقروض على الخريطة السياسية، بما يحقق مصلحة كل من الشريكين فى الدول الغربية المتقدمة ودول العالم الثالث.

كذلك، فى كل المجالات، تستطيع المشروعات الإنسانية أن تؤدى إلى رفض وتجاهل أيديولوجية رأس المال الداروينية التى يطلق عليها «**القوانين الاقتصادية**».

إن مضمون الرأسمالية يرمى إلى تفريغ كل مفهوم أخلاقى من مضمونه، لصالح لعبة عمياء «لقوانين السوق»، كما لو كانت هذه القوانين حتمية لا مفر منها للطبيعة، أو حتى كما قال الأمريكى لوتواك فى كتابه «ميلاد الرأسمالية»: «القوانين الإلهية المقدسة للسوق».

المعركة من أجل المستقبل، أيّا تكون الإجابة التى تعطيها على سؤال الغايات النهائية، لن تقود إلى تجريد المشكلة؛ لأنها تلتمس اتباع سلوكيات متناغمة مع الإيمان.

مقاطعة دولية تستطيع أن توقف الآلة الجهنمية

من الواضح أن الولايات المتحدة قد دخلت بعد الأزمة المالية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية المسرح الدولى كعملاق اقتصادى، وكانت الرأسمالية فى تلك المرحلة تعانى من الانكسار، فعملت الولايات المتحدة على توجيه الاستثمارات إلى الشركات الإنتاجية على المدى الطويل. والنظام الحالى الذى تقوده الولايات المتحدة، ويطلق عليه مصطلح «الاقتصاد الجديد»، يتسم بالنهم لجنى الأرباح والفوائد على المدى القصير، من خلال المضاربات وليس من خلال الإنتاج، على أسعار الأسهم وأسعار صرف العملات الأجنبية، وكذا أسعار المواد الخام والأولية فى الأسواق الدولية. وأصبحت البنوك تلعب أدوار الكازينو فى المقامرة، لدعم الشركات التى توظف الأيدى العاملة على مستويات أجور متدنية، وبدون أى رعاية أو حماية اجتماعية فى الدول الأكثر فقرًا، حتى لا يتم تركيز الإنتاج من خلال سياسة «اللامحلية» للإنتاج. وتقود هذه السياسة إلى تزايد معدلات الفقر والبطالة.

المستفيدون فقط من هذه الأرباح، هم المديرون وحاملو الأسهم، حيث يتم توزيع الأرباح المتزايدة بينهم، مقابل تسريح عدد كبير من عمال وموظفى الشركات التى تتجه أكثر فأكثر إلى الاندماج مع شركات أكبر.

يستلزم ذلك عدة خطوات:

- **الخطوة الأولى:** إلغاء ديون العالم الثالث - المستعمرات السابقة - التى سلبها ونهبها الغرب لمدة خمسة قرون.

إن معايير إلغاء الديون تختلف من دولة لأخرى، حسب التفاوض مع نادى باريس (للدول الدائنة) لإعادة جدولة الديون، يمثل هذا النادى «كارتل» اتحاداً أو تحالفًا أو تكتلاً بين مجموعة من الدائنين، فى مواجهة الحكومات المدينة التى تمثل أمام النادى بصفة منفصلة عن باقى الحكومات. (المصدر: «طريقة للرؤية» شهرية لوموند ديبلوماتيك، يوليو ٢٠٠٠م، ص٧٥).

على النقيض، نجد أن أكثر دولة مدينة فى العالم، هى الولايات المتحدة، لا تعانى من نفس الشروط والضغوط والقمع التى تعانى منها الدول المدينة فى العالم الثالث، ويعد ذلك من الأبعاد الهمجية للنظام العالمى الذى تهيمن عليه الولايات المتحدة.

- **الخطوة الثانية:** إمكانية تسوية المعاملات الاقتصادية الدولية لكل دولة بعملة هذه الدولة دون ربطها بالدولار.

- **الخطوة الثالثة:** التى لا غنى عنها من أجل تحقيق الهدف الرئيسى الخاص بالوحدة السيمفونية للعالم، تتمثل فى ضرورة فرض ضرائب من فئة الشرائح المرتفعة على كل معاملة اقتصادية تدخل تحت مظلة المضاربات (خاصة بأسعار العملات أو المواد الأولية أو غيرهما)، للحد الذى يجعل تفاقم هذه المعاملات الخاصة بالمضاربة أمرًا مستحيلاً.

تسمح هذه الخطوات الاقتصادية، بصورة حقيقية، **«بإعادة إنتاج نموذج للعالم»** يتجاوز التحولات الاقتصادية، وتستهدف تحقيق غايات ثقافية وروحية. وسيكون هذا النموذج الجديد موظفًا لخدمة **«الوحدة السيمفونية للعالم»**، وكذلك في خدمة كل مصادر الثراء الإنساني لكل طفل يحملها في داخله. العقبة الأساسية لتحقيق هذه الخطوة الحاسمة للوحدة الإنسانية تتمثل في الهيمنة الإمبريالية للنظام الحالي تحت الإدارة المنفردة للولايات المتحدة، التي تبذل أقصى ما في إمكانها لاستمرار اللاتوازن لمصلحة الأقلية.

من «إعلان حقوق الإنسان» إلى «ميثاق الواجبات»

أوظف بصورة مقيدة عند الحديث عن «السياسة» أحد مصطلحات علم اللاهوت وهو **«توحيد السوق»**!؛ لأن الأمر ينصرف إلى مشكلة دينية، حيث أصبح السوق الحر «المقدس» هو الذي يجب أن يخضع له الجميع.

إن التوحيد الأمريكي للسوق لا يذكرنا بالديمقراطية، بل يبعدنا عنها.

عظم الهوة بين الأغنياء والفقراء داخل كل «ديمقراطية ليبرالية»، أو أيضًا بين الشمال والجنوب بصورة لا يمكن تجاوزها أو ردها.

أن الديمقراطية «الليبرالية» لا تستبعد إطلاقًا الديكتاتورية الاجتماعية، في ظل وجود منتخبين ومستبعدين.

ولقد قال بسذاجة ممثل الرئيس بوش لدى المؤسسات الدولية في چنيف: إن الديمقراطية الليبرالية تعد بمثابة التعبير السياسي للرأسمالية. وأننا لن نكون في وضع أوضح لنحدد: أنها تتكون من سوق به أصوات ومرشحين، تلعب فيه وسائل الإعلام دورًا محوريًا لتعظيم سلطة المال.

إن امتلاك وسائل الإعلام يساعد على التحكم في اللعبة لتحديد المقصود بالنموذج «الديمقراطي» حسب من يتم استهدافهم، في تواطؤ فج مع المعلنين الذين يمتلكون سلطة المنح والمنع، الحياة والموت في كل وسائل الإعلام، من

خلال الموافقة أو الرفض لعرض إعلانات الشركات العملاقة فى هذه الوسائل، إلى الحد الذى يؤثر على قدرة هذه الوسائل على الاستمرار، أو إعلان إفلاسها وإغلاق أبوابها . .

لا تعكس وسائل الإعلام الآراء المتنوعة، ولكن رأى رأس المال هو الذى يفرض نفسه على وسائل الإعلام.

التليفزيون بصفة خاصة، يتمتع بمزايا نسبية عديدة مقارنة بالصحافة، حيث تتمتع صوره بامتياز السبق على أحداث الصحافة المكتوبة. والصورة تقدم دلالات أعمق وأسرع من التعقيبات والتعليقات المكتوبة والمسموعة. كما أنها تلعب دورًا كبيرًا فى التأثير على العواطف والانفعالات الجماهيرية. **ولقد لاحظ ذلك كاتب أورجواى إدواردو جاليانو، من خلال حادث اغتيال الأب بوبيلوزكو فى بولندا، فى عام ١٩٨٤م، حيث شغل هذا الحادث وسائل الإعلام ألف مرة أكثر من اغتيال مائة قس فى أمريكا اللاتينية من جانب إرهاب الدولة. أولاً، لأن الأمر ينصرف إلى العالم الثالث، وبالأخص لأن «سرايا الموت» تمارس القتل وإثارة الهلع بحرية فى دول تعتبر من جانب «الديمقراطية الأمريكية الكبيرة» دولاً «ديمقراطية»؛ لأنها تأخذ بسياسات السوق الحر الذى يسمح بالغزو الاقتصادى الأمريكى الدائم، الذى يكبل عملية التنمية فى هذه الدول.**

كذلك يعد التليفزيون وسيلة الإعلام التى تلعب دورًا محوريًا فى شن ثورة ثقافية، تجعل قبولها ممكنًا لدى الجماهير.

فنحن نستطيع أن نعيش وقتًا بدون إحساس أو توجه، حيث تتزايد اللامساواة، والمخدرات التى أصبحت وسيلة للهروب، وارتفاع معدل ارتكاب الجرائم من أجل البقاء على قيد الحياة. ويمكن أن يلعب التليفزيون دورًا فى قبول أو رفض هذه السلوكيات.

تكشف لنا الخبرة العملية أن الرأى العام يمكن أن يخطئ، أو أن يقع فريسة للفساد

والخداع. فالديمقراطية الحقيقية على المستوى الرسمى لم تعد قابلة للتداول، بعد أن حلت محلها الديكتاتورية.

لقد وصل هتلر إلى السلطة «الأكثر ديمقراطية» فى العالم، لقد انتخب مستشارًا بواسطة أغلبية أصوات الناخبين الثوار المتمردين على البطالة، وضعف الجمهورية الألمانية.

كل هذا قريب منا، فى الجزائر «ديمقراطيونا» الفرنسيون نادوا بقوة «بانتخابات حرة»، وتحقق فى الجزائر السيناريو الذى تحدث عنه برتولد بريشت فى صورة فكاهة وظرف أخفت ما وراءه من مكر وخداع، «فالشعب قد صوت.. وحكم على قادته.. الحل الأكثر بساطة تمثل فى إذابة الشعب وانتخاب آخر»(*)، كما أن ديمقراطينا، على جانبى الأطلنطى، يستلذون انتصارهم الخاص «بحرية السوق» التى تم تأمينها من جانب صندوق النقد الدولى الذى يفرض «بحرية» فى الجزائر «سياسة التكيف» التى ترمى إلى تجميد المرتبات و«تحرير» الأسعار، وضغط برامج الرعاية والحماية الاجتماعية، مستندًا فى ذلك على مساعداته من قروض واستثمارات.

أدت هذه السياسات إلى وضع السلطة التى لا يساندها صندوق النقد موضع الاتهام؛ لأنها تدافع عن ديانة أخرى مخالفة لـ «توحيد السوق».

فى كل هذه الحالات، منذ قرنين من الزمان، نجد أن هناك هرولة فى اتجاه التسليح والقمع تحت اسم «الأمن الوطنى» الذى لم يتوقف بعد عن اعتبار الطبقات الأكثر فقرًا «طبقة خطيرة» تمثل تهديدًا للأمن القومى، من خلال تهديد مؤسسات وهياكل الهيمنة الاجتماعية أو الاستعمارية.

الشمولية الليبرالية أو اقتصاد السوق هو المنظم المحتكر لكل العلاقات الاجتماعية

(*) بمثل هذا ينادى كثير من حكام الشرق الأوسط ليحذروا أمريكا، فيقولون إن الانتخابات الصحيحة سوف تأتى بالمتطرفين للحكم. ويبرز هنا أسئلة واتهامات مزدوجة: من هم المتطرفون؟ ولماذا هم الأغلبية بين شعوب المنطقة؟ ولمصلحة من هذا التحذير؟.

بدون أى قيد. يتحول هذا النظام إلى ديكتاتوريات عسكرية تساعدها الولايات المتحدة فى الوصول إلى سدة الحكم، كما فعلت مع پينوشيه والكولونيلات والچنرالات المستبدين فى الأرچنتين والبرازيل، وفى مناطق أخرى فى العالم.

وبمجرد أن يتم تحقيق الأهداف، بمعنى أن يتم فرض التبعية للولايات المتحدة، يفضل القادة الأمريكيون رعاية أنشطتهم وأعمالهم بطريقة غير مرئية مع «ديمقراطيى» ذلك البلد المنكوب: مثلما حدث فى الأرچنتين مع منعم، أو فى البرازيل مع كولور. لقد تم إنجاز نفس الأهداف بوسائل أخرى، وباستخدام تيارات أخرى، على شاكلة عرائس «الماريونيت».

بفضل نظام السوق «الحر» المهيمن عليه من قبل الأمريكيين، أيًا كان النظام (الواجهة)(*)، ٤٠٪ من شعوب أمريكا اللاتينية يعيشون تحت خط الفقر. (حسب وثائق اليونيسيف).

تشير اليونيسيف إلى أنه فى البرازيل يموت ألف طفل يوميًا من الجوع والأمراض القابلة للشفاء. فى كولومبيا، نجد أن هناك طفلاً من كل ثلاثة أطفال يعانى من التخلف العقلى، نتيجة سوء التغذية.

كما أن الرؤساء فى أمريكا اللاتينية - وغيرها من بلاد العالم الثالث - يحصلون على الضوء الأخضر من واشنطن، شريطة احترام الإرث الملعون من الديكتاتوريات العسكرية الحاكمة: ابتزاز شعوبهم لصالح الولايات المتحدة، مقابل نسيان جرائمهم.

إن هذه المشاهد للديكتاتوريات من أفريقيا والشرق الأوسط إلى أمريكا اللاتينية، يجب أن تقدم لنا فكرًا جديدًا عن مهام المؤسسات العسكرية، فى سياق من الهيمنة العالمية للولايات المتحدة. يجب على هذه الديكتاتوريات، أن تخدم القوى العظمى.

فلم تعد الجيوش تحمى البلاد، بقدر ما أصبح لها دور قمع وردع، من خلال تنظيم سلسلة من الضربات الدموية التى توجهها الدولة نفسها إلى الشعب، من أجل حماية دورها كتابعة للولايات المتحدة أو لأوروبا.

(*) حسب تعبير ناعوم تشومسكى.

لقد تدربت هذه الجيوش ليس فى سبيل الدفاع عن استقلال شعوبها، وإنما من أجل الهدم والتخريب، لفرض الهيمنة الأمريكية الإمبريالية على شعوبها.

***

حسب علم اللغة، تعنى الديمقراطية: حكم الشعب بالشعب لصالح الشعب. من خلال المنظر الرئيسى للديمقراطية الذى نادت بأفكاره الثورة الفرنسية، چان چاك روسو الذى طالب فى نظريته حول «العقد الاجتماعى» بتمزيق كل تخاريف ومطامع «الديمقراطيات الغربية»، **حيث إن الديمقراطية الحقيقية لم يكن لها أبدًا وجود، وقد كان ذلك لسببين:**

١- اللامساواة فى الثروات: التى تجعل من المستحيل تشكيل إرادة عامة.

٢- غياب الإيمان بقيم مطلقة تحدد لكل شخص حقوقه وواجباته، دون أن تترك الظروف مؤاتية لسيادة قانون الغابة القائم على الفردية، حيث يعتقد كل فرد أنه مركز الأشياء ومحدد معاييرها وأنه المنافس والند فى مقابل كل الآخرين (العقد الاجتماعى، ص٤٦٨).

لم يوجد إذن إلا مثال تاريخى لطموح «الديمقراطية» تجسد فى اليونان القديمة. ندرس اليوم هذا المثال إلى طلبة المدارس، على اعتبار أن اليونان «أم الديمقراطية»، دون أن نذكر أنه فى هذه «الديمقراطية» الإثنية (فى القرن الخامس قبل الميلاد) كانت هناك أقلية من المواطنين الأحرار، شكلت الشعب المالك والمتمتع بحق التصويت (الانتخاب)، وأكثرية من العبيد وغيرهم، لم يكن لهم الحق فى أى شىء. إن الاسم الحقيقى لهذه الديمقراطية، كان: **أوليجاركية استعبادية** (حكم الأقلية للأكثرية المستعبدة).

إن هذا الاستخدام الكاذب لكلمة الديمقراطية ما زال مستمرًا فى الغرب.

- إعلان الاستقلال الأمريكى

نادى فى ٤ يوليه ١٧٧٦م، (العام الذى توفى فيه چان چاك روسو): «يعتبر

كحقائق بديهية أن البشر يولدون متساوين، وأن خالقهم قد وهب لهم بعض الحقوق التى لا يجوز التخلى عنها: الحياة والحرية. . . ». واستمرت العبودية وقمع وكبت حريات، وسلب حياة الزنوج والهنود الحمر فى أمريكا - قانونيًا - لمدة مائة عام بعد الاستقلال، وما زالوا حتى اليوم يعانون من الاضطهاد والتفرقة.

ديمقراطية من أجل البيض.. دون أن تكون للسود

- أكد إعلان حقوق الإنسان والمواطن الصادر عن الثورة الفرنسية أن «كل البشر يولدون ويشبون أحرارًا ومتساوين فى الحقوق». فى مواده أرقام ١٤ - ١٥، يحدد أن «كل المواطنين لهم الحق فى المشاركة فى تفصيل وتفسير القانون»، والدستور الذى شمل هذا الإعلان بمثابة مقدمة، لم يعط حق الانتخاب إلا لمن يملكون: الآخرين، أى ما يعادل حوالى ٣ ملايين فرنسى أعلنوا مواطنين سلبيين. المواطنون النشيطون (الناخبون)، حسب تعبير سييس الأب الروحى لهذا الدستور حددوا على أنهم «الفاعلون الحقيقيون فى الشركة الاجتماعية الكبيرة». وقبله الفيلسوف الفرنسى الأكثر شهرة فى القرن الماضى، ويدور، وكتب فى موسوعته العلمية مقالاً حول «النائب»: **«المالك وحده يكون المواطن»**.

ديمقراطية من أجل الملاك.. وليس الشعب

يصبح من نافلة القول، نقد **«الإعلان العالمى لحقوق الإنسان»** الذى قد أعلن رسميًا بواسطة المنتصرين على هتلر - الذى كان الزعيم الأكثر بربرية وديكتاتورية فى الغرب - من جراء خمسة قرون من هيمنة الاستعمار الغربى العنصرى، ومحاولات الإخضاع، والمذابح الدموية، وتدمير وتخريب الثقافات والشعوب، باسم الأحكام المسبقة التى تأسست على أسطورة «الشعب المختار» الذى هو الشعب الوحيد القادر - والواجب عليه - أن يقدم **«حضارته»** للآخرين عن طريق الحديد والنار.

هنا، يُطرح سؤالان أساسيان:

١- عندما نتحدث عن الإنسان، إلى أى إنسان ينصرف الحديث: الأبيض؟ أم المالك؟ أم الغربى؟

٢- ما المقصود من الحق بالنسبة لإنسان لا تتوافر لديه سبل ووسائل ممارسة ذلك الحق؟

إلى أى إنسان ينصرف الحديث؟

كل هذه المخادعات الخاصة بـ «الديمقراطية» وبـ «حقوق الإنسان» تنبع من نفس المصدر: «إعلان» يعتبر الإنسان هو ذلك الفرد الذى يشكل الأقلية المسيطرة أو المهيمنة التى تدافع عن «الحقوق» فى أية حقبة.

ما المقصود من «الحق» لمن لا تتوفر له سبل ممارسته؟ مثل «الحق فى العمل» لملايين العاطلين، أو «الحق فى الحياة الكريمة» لمليارات من البشر فى العالم غير الغربى، يموتون فى أنحاء العالم، بعد أن تم إهدار ونهب مواردهم وثرواتهم «بحرية» من جانب أصحاب الامتيازات. ماذا تعنى «المساواة» التى تمنع «بالتساوى» كلاً من الجائع والملياردير من أن يسرق رغيفًا من الخبز، أو أن تسمح لأىٍّ منهما بأن يؤسس جريدة، أو يشترى شبكة تليفزيونية؟ فالقانون يساوى بين الجميع، وأيّا كانت أكاذيب وخرافات «حقوق الإنسان»، فهم ينادون بأن تكون «عالمية»!!

يصبح اتباع الاتجاه المضاد أمرًا ضروريّا، بمعنى أنه لا يجب الانطلاق من الفرد (أبيض، مالك، أو غربى)، لكن يجب الانطلاق من الجماعة العالمية الإنسانية، محددين ليس حقوق الفرد وإنما **واجباته**، حسب سلم أولويات، مع ضمان المجال للتنمية الحرة لكل أعضاء هذه الجماعة العالمية.

يعد المجتمع حصيلة تجاذب الأفراد الذين لن يتمتعوا بحق التصويت أبدًا، إلا فى ظل ديمقراطية وهمية، إذ تكشف الإحصائيات وتداول السلطة من قبل وسائل الإعلام قابلية للأصوات الانتخابية للبيع وللشراء.

ولا يعد النظام الجمهورى محميًا أو محاطًا بسور ضد الديكتاتورية. فهتلر لم يصل إلى السلطة عن طريق انقلاب، ولكنه وصل إلى سدة الحكم بأكثر الطرق «ديمقراطية»، حيث حصل مع حلفائه على الأغلبية المطلقة فى برلمان جمهورية ڤايمر.

الديمقراطية الحقيقية لا يمكن أن تؤسس إلا على **ميثاق للواجبات**، لا يوجه فقط للأمة، ولكن إلى المجتمع العالمى للإنسانية.

مشروع ميثاق للحقوق.. لكل إنسان.. ولكل الإنسانية

١- **الإنسانية تعد جماعة واحدة،** لكنها ليست إمبريالية لهيمنة دولة أو ثقافة على هذه الوحدة. على النقيض، تعد سيمفونية، بمعنى ثراء المشاركة لجميع الشعوب وثقافتهم.

٢- **جميع واجبات الإنسان والجماعات التى يشارك فيها، تساهم فى تحقيق هذه الوحدة.** ولا توجد أى جماعة إنسانية مهنية، أو قومية، أو اقتصادية، أو ثقافية، أو دينية، يُسمح أن يكون لها هدف للدفاع عن الامتيازات الخاصة، ولكن الارتقاء بكل إنسان وبكل البشر أيّا كان النوع أو الأصل الاجتماعى أو العرقى أو الدينى، لكى تعطى لكل واحد الإمكانية المادية والروحية لنشر كل السلطات الإبداعية التى يحملها بداخله.

٣- **الملكية،** عامة أو خاصة، ليس لها أية شرعية، إلا إذا كانت مؤسسة على العمل، والتعاون نحو التنمية من قبل الجميع.

٤- **السلطة،** على أى مستوى، لا يمكن أن تمارس أو يستحوذ عليها، إلا من خلال نيابة وتمثيل من يلتزمون ويرتبطون بذلك، وحتى يفسحوا الطريق للرأى العام، لكى يلاحظ ويراقب ويراجع ويصحح أداءها. وإذا أخل أصحاب المناصب والمسئوليات بالتزاماتهم، يجب أن يتم استبعادهم.

إذن، الأمر لا ينصرف إلى أى امتيازات، ولكن ينصرف فقط إلى واجبات ومتطلبات.

٥- المعرفة، لا يمكن أن تكون فى أى مجال طامعة إلى احتكار الحقيقة المطلقة؛ لأن هذه الأصولية الفكرية ستولد بالضرورة الشمولية ومحاكم التفتيش.

٦- الهدف، بالنسبة لأى مؤسسة عامة، كل فرد يشارك فى الوعى، لكى يكون شخصيًا مسئولاً عن مصير كل الآخرين.

٧- التنسيق العالمى لهذه الجهود يسمح بحل المشكلات الخاصة بالجوع والهجرة والبطالة، بحيث تعطى لكل إنسان وسائل تأدية وإنجاز واجباته وممارسة حقوقه التى منح من أجلها المسئولية.

***

الاقتصاد والسياسة، حسب علم الاشتقاق اللغوى، هدفهما تنظيم العلاقات الاجتماعية على كل المستويات، بدءًا من العائلة وحتى الأمة والجماعة الدولية.

الثقافة، التى تعنى إجمالى علاقات فرد ومجتمع تجاه الطبيعة والبشر الآخرين والقضايا المقدسة، يجب إذن أن تلعب ليس فقط دورًا تكامليًا مع الاقتصاد والسياسة، بل وأن تلعب دورًا منظمًا من خلال البحث عن الغايات النهائية للحياة.

دورًا لم يتم لعبه حتى هذه الساعة؛ لأن الثقافة باعتبارها «ديانة وسائل»، يتم توليدها وإنتاجها من جانب النظام.

يعكس التعليم الانحطاط الذى يعيشه المجتمع؛ لأنه لا يلعب دورًا فعليًا فى البحث عن الغايات النهائية.

هذا المكان الأول

بذور الأمل

فى هذا العالم الذى تم إذلاله منذ خمسة قرون بواسطة الاستعمار الأوروبى، ثم هيمنة «العولمة» المزيفة، يجب علينا أن نعود اليوم إلى الدفاع عن

مستقبل ذى وجه إنسانى، لمجتمع عالمى حقيقى وثرى بالحوار البناء التعاونى من جانب كل الحضارات.

سيقـود «طريق الحرير» الجديد فى نسختـه الأكثر مستـقبلية من روتردام إلى شنغهاى، بسرعة ٥٠٠ كيلومتـر فى الساعة بواسطة قطار جذاب وساحر، إلى هذا المكان الأول.

لقد قـاد، فى القرن الرابع عشـر، «طريق الحرير» القديم قـوافله من الشرق إلى الغرب، لـيس فقط على المستـوى التجـارى للسلع الثمـينة والنفيـسة، بل ولانتقال البشر وثقافاتهم وإبدعاتهم أيضًا.

***

إذن الحل الوحيـد الذى لا يمكن اعتباره وهـمًا أو خداعًا، يتـمثل فى الربط الدقيق بـين مشكلتى: البطالة والجـوع، مع السعى والبـحث للوفاء بالتـزامات الأعداد الغفيرة فى العالم الثالث.

إن السياسة الغربية المرتكزة على استـبداد الديون وفوائدها، والمبادلة التجارية غير المتـكافئة (مثل حـرب الأفيون)، والعمل الدءوب للاحـتفاظ بالمستـعمرات القديمة كـتابعين للدول الأم الاستعـمارية، فى «السوق العالميـة» الداروينية التى يحكمها قانون الغابة، حيث الأقوى يفـترس الأضعف، نجد أنها قد قادت إلى جعل الحياة أمرًا غير قابل للحـياة، بالنسبة لأكثر من نصف سكان كوكبنا. فى ظل هذه الظروف، لا يمكن تجنب أو مـنع حركـة هجـرة، حتى لو تم صـدها وحبسها عن طريق الاستعباد والقمع.

نكرر مرة أخرى، أن الحل الحقيقى الوحـيد لخلاص هذا الكوكب يتمثل فى استعادة توازنه.

***

إن التحالفـات الجديدة التى صيغت أشكالهـا المسبقة فى تجمع مـاستريخت والعولمة، تهيمن على عالم اليوم.

ويعد الجانب الأكثر إشراقًا، هو تصويت الكثير ضد ماستريخت، بعد أن برزت مشكلة السياسة الخارجية، حيث إن حوالى نصف شعبنا بما فيهم من وظفوا المستقبل فى مشكلاتنا الداخلية، مثل البطالة والهجرة، يرفضون تبعية أوروبا للولايات المتحدة، من خلال أوروبا متأمركة؛ لأن ذلك سيزيد من خطورة الموقف.

لذا نكرر، أنه فى إطار ظروف العالم اليوم، فإنه لا توجد مشكلة واحدة يمكن حلها فقط فى السياق الوطنى لأى شعب، ويتطلب هذا ضرورة تأسيس نظام عالمى جديد.

والمجهود الأساسى الواجب بذله، يجب أن يكون فى سبيل التوضيح النظرى الذى يعيد طرح مشكلاتنا بصورة واضحة وطريقة أكثر راديكالية على المستويين المحلى والعالمى، تشرح كيف نستطيع فى هذا السياق الدولى أن نحدد مواقفنا تجاه الأحداث.

ولن يكون صراعنا فعّالاً، إلا إذا تحلينا بالوعى والاهتمام تجاه الشعوب فى سبيل حل مشكلاتنا ذات الأولوية الغالبة. كما أننا يجب أن نناضل ضد أى تبعية تجاه الولايات المتحدة ومتطلباتها.

إن أوروبا المتأمركة وتبعيتها لحلف الناتو، تشكل أداة لهذا المفهوم الطفيلى المنحط.

فى خطاب ثنائه حول العولمة، تحت عنوان «التظاهر من أجل عالم مستقر» كتب توماس ل. فريدمان، فى صحيفة نيويورك تايمز، فى ٢٣ مارس ١٩٩٩م، قائلاً إن: «**حماية العولمة يعد بمثابة الدعامة الأساسية لمصالحنا الوطنية.. العولمة أمريكية النشأة بالأساس**». وأضاف أن «الإمبريالية قديمة الطراز، لم يعد لها وجود، حين كانت دولة تقوم باحتلال دولة أخرى، كلية بصورة مادية»، وأن «هناك مطلب يتعلق بوجود مؤسسة لسلطة الجغرافية السياسية المستقرة، لا تستطيع أن تكون محمية، بدون أن تلعب الولايات المتحدة دورًا محوريًا فى

حماية هذا الهيكل». نلخص هذه النقطة فى صورة جميلة: «الأيدى الخفية، لا يمكن أن تمارس دورها أبدًا بدون قبضة خفية، كما هو الحال بالنسبة لسلسلة ماكدونالدز التى لا يمكن أن تتطور بدون ماكدونالد دوجلاس (الذى صاغ مفهوم الطائرة الحربية إف - ١٥)، إن اليد الخفية التى تحفظ أمن العالم، من خلال التكنولوجيا فى وادى السيليكون، تساهم فى صناعة الأسلحة الأمريكية للقوات الجوية والبحرية. من هنا، يجب حماية وصون «نظام مجرد للعولمة» الآن.

بيل كلينتون نفسه، أعطى المعنى الحقيقى لعدوانه على كوسوفا: «إن كنا نعمل فى اتجاه شراكة اقتصادية قوية تزيد من قدراتنا على البيع فى كل مكان فى العالم، فيجب على أوروبا أن تصبح أحد مفاتيحنا، هذا يلخص كل المسألة فى كوسوفا»، (دانيشن، فى ١٩ أبريل ١٩٩٩م، ص٥).

أما بالنسبة لتركيا، فإن حلف الناتو يتجاهل عمليات التطهير العرقى التى جرت بواسطة حلفائه الأتراك فى هذه «الحرب الصليبية المقدسة»، فى منتصف سنوات التسعينيات ضد عشرات الآلاف من الأكراد، فى حوالى ٣٥٠٠ قرية، تم تدميرها (وتزيد هذه الأرقام بنحو سبعة أمثال الخسائر التى وقعت فى كوسوفا)، وما يقرب من مليونين إلى ثلاثة ملايين لاجئ كردى.

***

«طريق الحرير» الجديد والجسر عبر القارى

فى ٧ مايو ١٩٩٦م، بدأت حقبة جديدة لمستقبل الإنسانية: فى بكين وبدون استبعاد لأحد، **ظهرت رؤية جديدة لنظام جديد يحقق وحدة العالم، مع مشاركة كل الشعوب وكل الثقافات.**

نواة نظام تشكل من ٣١ دولة آسيوية، اقترحت للعالم، بدءًا من مشروع **«طريق الحرير الجديد»، أن تصبح جسرًا أوروبيًا - آسيويًا قاريًا،** كبديل **«للعولمة»** الملكية التى تديرها الولايات المتحدة.

فالاستثمارات لن تكون موجهة إلى أنشطة المضاربة، لكن ستوجه إلى تنمية البنية الأساسية، واقتصاد كل شعب حسب أهدافه وطموحاته وسياساته، فى إطار قاسم مشترك وحيد، يعبر عن المصلحة الأولى للجماعة الدولية ككل.

لقد حدد هذا المؤتمر استراتيچية عظيمة لتنمية القارة الأوروپية - الآسيوية، من خلال نظام يقوم على شبكة عبر قارية للمواصلات الحديثة: للطاقة والرى والاتصال بين خطوط السكك الحديدية وربط الساحل الپاسيفيكى (الهادى) من ناحية الصين بالساحل الأطلنطى لأوروپا.

***

إن هذا «النموذج الجديد» العملاق للعالم الذى نعيش فيه، سيكون فى خدمة الإنسانية كلها؛ لأنه سيكون بصفة أساسية قائمًا على تحويل جذرى للثروات المالية والإمكانيات العظيمة والموارد والتكنولوچيا، من منطقة المضاربة إلى منطقة الاقتصاد الإنتاجى الحقيقى.

بمعنى آخر مبسط، يمكن القول إن النقود لم تعد تقود إلى كسب المزيد من النقود، بل إلى بناء مدنية البشر، من خلال الاستثمارات الإنتاجية للثقافات الإيجابية والمنتجة.

إذن، لا يمكن أن نفهم أن نهضة آسيا ستتعارض مع أوروپا أو الغرب بصفة عامة، لكن على العكس، ستسمح روح التعاون والتنسيق مع الغرب إلى الخروج من أخدود تبعيته، وتكشف سياسات غالبية الدول الآسيوية عن أنها تسعى إلى الاشتراك فى هذا التنسيق مع الغرب.

يشهد العالم العديد من المواجهات والصراعات بين الساعين إلى الهيمنة عليه. لذلك يتعين اليوم العبور إلى الحقبة الثالثة للحضارة، من خلال التنمية التضامنية للإنسانية، من أجل وضع نهاية لمئات السنين المهمشة فى تاريخها.

إن مراحل «تقدم» الإنسانية لا تعد بالسنين، ولكن بمراحل الوعى والإدراك

بالتنمية والسير على درب الوحدة، من خلال التكيف مع التحولات الكبيرة، من خلال الإبداعات الخلاقة التى تساعد الإنسان على توجيه مصيره والتحكم فيه.

يتعين اليوم بعد فشل وإفلاس «**العولمة**» البحث عن بديل مختلف للهيمنة الإمبريالية على العالم - من جانب عمليات الاحتكار الكبيرة، التى تقوم بها الولايات المتحدة والدول الخاضعة والتابعة لها - من أجل «**إعادة إنتاج نموذج كونى**» للعالم خاص بـ «**التنمية التضامنية**» لكل الثقافات.

فى اللحظة التى يهتم فيها «الألفيون» بمحاولة دفعنا للاعتقاد فى تنبؤات نوسترا داموس الخاصة بميلاد حقبة تاريخية جديدة، كنت قريبًا لأشارك رأى إدجار مورين الذى عرف «**التغيير الحقيقى**» من خلال **سلوك إنسانى**، مع اختلاف أننى أعتقد أن الألفية الثالثة بدأت فى **سياتل**. بدون أن نتخيل أى أوهام على آثارها العملية المباشرة، نجد أن «**الحدث**» الحقيقى تمثل فى: مشروع القادة الأمريكيين وتابعيهم، الذين اصطدموا بتعبئة وتحريك الكوكب ضدهم وضد المفهوم الإمبريالى «للعولمة»، الذى يسمح للأغنياء بأن يصبحوا أكثر ثراء، ويجعل الفقراء أكثر فقرًا وأكثر عددًا.

***

يجب علينا أن نحدد تاريخًا لبدء الحقبة الثالثة للحضارة، فى الفترة من ٧ - ٩ مايو ١٩٩٦م فى بكين، عندما عقد المؤتمر الدولى حول التنمية التضامنية للعالم. اجتمعت فى هذا المؤتمر ٣١ دولة آسيوية. سعت إلى إعادة إنشاء «طريق الحرير»، مع توفير الوسائل التقنية العملاقة والجبارة التى ستوفرها العلوم الحديثة لتحقيق إنجازاتنا، حتى الرمزية منها؛ لأن ذلك يمكن أن يبث حالة من التفاؤل للمستقبل، كطريق السكك الحديدية الذى يربط شنغهاى بمدينة روتردام، أو الأطلنطى بالهادى من خلال قطارات حديثة تجرى بسرعة ٥٠٠ كيلومتر فى الساعة، على قضبان حديدية ممغنطة.

وسيولد تحت أشكال راديكالية جديدة، جسرًا عظيمًا سيربط بين جانبى الجزيرة الأوروبية - الآسيوية «أورو - آسيوية»، وسيقوم بالإعداد لإنتاج «النموذج الجديد» لعالم موحد مع فروعه وتشعباته فى أفريقيا.

لقد وجد البديل الذى يرتكز على التنمية «**التضامنية**»، بدلاً من «**العولمة الإمبريالية القاتلة للبشر والثقافات**».

***

لا تستطيع، إذن، الأزمات الدائمة للنظام أن تُحل، سواء من خلال «**التنمية**» التى تغذى كل الكوارث، ولا عن طريق التكنولوچيا المتقدمة التى وظفت فى سبيل استبعاد الفلاحين من الأرض والعمال من الورش والمصانع.

إن البديل الوحيد عن سباق **الكوكب نحو الانتحار**، لن يكون، إذن، إلا عالميًا. فى إطار هذا المنظور المدافع عن **اقتصاد السوق**، نجد مشروعًا يضر أكثر من ثلثى سكان الكوكب فى دول العالم الثالث، لا يملكون إمكانيات الوفاء بالتزاماتهم، ويموتون بسبب الجوع والبؤس والشقاء. كما أن ملايين العمال فى الدول التى يطلق عليها «**غنية**» يصطدمون بالوقوع فريسة للبطالة، نكتفى فقط بنصيحتهم (كما حدث فى المؤتمر العالمى «**للسكان**» بالقاهرة) بأن يقللوا من عدد الأطفال الذين ينجبونهم، حتى تستطيع الولايات المتحدة أن تستمر فى نهب وإهدار الموارد!

يصبح البديل الوحيد إذن عالميًا: يتعلق بالتنمية التضامنية للعالم، حيث «الازدهار» لعدد قليل من البشر لا يعنى أن نتيجته الحتمية البؤس والشقاء والجوع لأغلبية سكان العالم.

***

فى يناير ١٩٩٦م، قامت سبع دول بقيادة الصين واليابان بالتوصل إلى اتفاق، يهدف إلى زيادة معدل التجارة المنقولة عبر طريق دورزهابا - ألاتاو

(على حدود الاتحاد السوفيتى)، وفق قاعدة التعاون والمصلحة المتبادلة. من أجل انفتاح تاريخ الإنسانية على حقبة جديدة من التوسع العالمى للاستثمارات والتحضر والتنمية الزراعية الصناعية.

تعانى أقاليم وسط آسيا من خشونة المناخ وقدم وسائل النقل. فى حين أنها تتمتع بأراض خصبة شاسعة، والعديد من الموارد الطبيعية التى يمكن أن تساهم بصورة كبيرة فى دفع عملية التنمية والرخاء الاقتصادى. ويتوفر فى هذه المناطق مصادر كثيرة للطاقة، لدرجة أنه يمكن اعتبار هذه المناطق المخزن الاستراتيچى لمصادر الطاقة فى العالم كله. من هنا يظهر الاعتماد المتبادل والتكاملية كحقيقة تتجسد فى الجسر البرى فى القارة الأوروبية الآسيوية. كما أنها تعلن عن إمكانيات كبيرة للتعاون بين شطرى القارة الأورو - آسيوية فى المستقبل.

يرتبط السكان بصورة مباشرة أو غير مباشرة «بالجسور الأورو آسيوية» التى تشمل قرابة ٥٠٠ مليون نسمة فى أوروبا من ٤ مليارات نسمة فى آسيا الشرقية وجنوب آسيا الساحلية. لقد بدأ تنفيذ هذا المشروع فى أحد جانبيه. فى عام ١٩٩٠م، تم تجديد القطاع الأخير من طريق السكة الحديدية إلى ١٤١٣١ كيلومتر طولاً. ويذكر أن خطوط السكك الحديدية المستخدمة فى الأغراض التجارية، انطلاقًا من الصين، قد تم تدشينها وافتتاحها فى عام ١٩٩٢م.

بالنسبة للدول التى حصلت مؤخرًا على استقلالها فى وسط آسيا: من تركمنستان إلى أوزبكستان وطاجكيستان وكزاخستان، إعادة إحياء طريق الحرير، يعد بمثابة مصدر للأمل فى المستقبل لدى شعوب هذه الجمهوريات، على مساحة تعادل أكثر من مرتين مساحة جميع دول الاتحاد الأوروبى مجتمعة، خاصة وأنها تشغل موقعًا استراتيچيا يقع بين الصين وروسيا وأوروبا. يتمتع هذا الإقليم الشاسع بتوفر الموارد الطبيعية للطاقة من بترول وغاز ومعادن استراتيچية، ومصادر و ثروات أخرى طبيعية استراتيچية. إن إنتاجية الاستثمار فى المناطق القطبية الشمالية فى سيبريا شأنها شأن الأقاليم

المتصحرة فى وسط آسيا، تعتمد على سهولة وصولها إلى مصادر ثرواتها الطبيعية، وكذلك انفتاحها على العالم الخارجى، عبر أداء شبكات النقل ووسائل الاتصال.

فى عام ١٩٩٧م، فى أنقرة، أعلن مؤتمر الدول الإسلامية الكبرى (منها إيران وإندونيسيا وماليزيا ونيچيريا وپاكستان وتركيا) عن ميلاد تنظيم دولى جديد، عُرف باسم «**مجموعة الثمانى الإسلامية**»، فقد أعلن رئيس الوزراء التركى أربكان أن هذا الحدث سيشكل «**تحولاً فى تاريخ الإنسانية**»، مؤكدًا أن مجموعة الثمانى الإسلامية لن تتأخر عن ممارسة تأثير حاسم على السياسة العالمية.

***

ظهرت على السطح ظاهرتان دوليتان. الصين، وجمهورية إيران الإسلامية، اللتان تشغلان موقعًا مركزيًا فى الاقتصاد العالمى وفى العلاقات السياسية بوسط آسيا والقوقاز. وتدين إيران، بهذه الأهمية، لدور التقارب الذى لعبته بين العديد من دول هذا الإقليم، انطلاقًا من موقعها الجغرافى وسياستها الخارجية.

تعانى كل جمهوريات وسط آسيا، باستثناء چورچيا، من عدم وجود منفذ لها على البحر. تجد هذه الجمهوريات نفسها فى وضع لا تحسد عليه، إذ يجب عليها المرور بإيران للوصول إلى السواحل البحرية والارتباط بالعالم الخارجى لإبرام وعقد الصفقات التجارية وتنمية العلاقات الاقتصادية مع العالم الخارجى. كما أن الدول التى تسعى إلى تدشين وإبرام وتأسيس علاقات اقتصادية مع جمهوريات وسط آسيا، يجب عليها أن تمر بالطرق البرية أو البحرية أو الجوية للصين أو إيران.

إيران والصين هما الوحيدتان بين كل الدول اللتان تتمتعان بموقع جغرافى استراتيچى كدولة مفتاح للمنطقة. تتمتع الصين بحدود مشتركة مع إقليم وسط آسيا. بالنسبة لإيران، نجد أن لها حدودًا مشتركة مع إقليمى وسط آسيا والقوقاز. وتصل طرقها البرية والبحرية إلى وسط آسيا والقوقاز وروسيا.

لكى تكون الاستفادة كبيرة من الموقع الجغرافى، الذى يعطى للدولة ميزة نسبية لتلعب دور المفتاح والجسر الذى يقوم بتحقيق الاتصال الإقليمى والقارى بين دول وسط آسيا وأعالى البحار، قامت جمهورية إيران الإسلامية بربط شبكة خطوط سككها الحديدية بخطوط السكك الحديدية فى الجمهوريات الجديدة بوسط آسيا وروسيا.

سيسهل هذا الاتصال بين خطوط السكك الحديدة نقل البضائع والمبادلات التجارية بين دول وسط آسيا وباقى أقاليم العالم. وستساهم شبكة خطوط السكك الحديدية فى إعطاء صورة أفضل للثقافة والديانة والتاريخ الخاص بهذه الأمم.

يعد هذا المشروع، مشروع القرن الكبير، ويطلق عليه «طريق الحرير لخطوط السكك الحديدية» من جانب اللجنة الاجتماعية والاقتصادية لآسيا والمحيط الهادى بالأمم المتحدة، الذى تم تنفيذه بالمشاركة مع تركمنستان، بدون الحصول على أية مساعدة دولية. بهذا تكون الحلقة الناقصة فى شبكة خطوط السكك الحديدية الأوروآسيوية، قد تم تنفيذها.

إن بدء تشغيل هذا الخط الحديدى سيساعد على ربط ميناء ليان يونج أنج الواقع شرق الصين ببندر عباس على الخليج الفارسى، وسيسمح هذا الخط بوجود منفذ، من ناحية، على أعالى البحار للأقاليم الداخلية لوسط آسيا، ومن ناحية ثانية سيسمح بالاتصال بخط السكك الحديدية من روتردام - طهران وإستانبول - أوروبا.

إن مشاركة الصين فى بناء عدد من قطاعات خطوط السكك الحديدية من هذه الشبكة قد سمح، فى نوفمبر ١٩٩٥م، ببدء تشغيل أول قطار، لأول مرة يسير على قضبان هذا الطريق من ميناء ليان يونج أنج حتى تاشكين.

***

داخل هذه القارة الأورو آسيوية الشاسعة الامتداد، نجد أن الصين وإيران قد أخذتا بزمام «المبادرة الكبرى»، لكى تمارسا تأثيرًا حاسمًا. على الجانب الآخر، تمر العديد من الدول الآسيوية حاليًا بمرحلة تحول. فبعد الخبرة الحديثة الخاصة

بالمغامرات الفاشلة «لتنينى» القارة وأزماتهما المالية بعد أن كانت هذه الدول تعيش مرحلة انطلاق اقتصادى على الطريق القاتل «للتنمية» بالمعنى الغربى، ترددت هذه الدول فى الاندماج فى نظام الهيمنة العالمى الأمريكى (تحت مسمى «العولمة»)، وترددت كذلك فى الالتزام بطريق التجديد الذى دعيت إليه.

بدأت «**جذور الأمل**» تنمو، بدءًا من معارضة راديكالية لمبادئ **توحيد السوق والمضاربة، وتقدم بديلاً عنها اقتصاد إنتاجى، يهىء البنية الأساسية اللازمة** لتحقيق تنمية إنسانية حقيقية.

***

على النقيض من أوروبا التى لم تعرف هوية روحية **إلا تحت** تاج «**المسيحية**»، ولم تعرف أى نوع آخر من الوحدة، إلا وحدة سوق مشتركة تابعة للسوق العالمية الأمريكية، **لا تزال الشعوب الآسيوية تستمد القوة من روحانياتها التقليدية** (حيث التعدد الكبير: الشينتو فى اليابان، الكونفوشيوسية فى الصين، والإسلام فى إيران وغيرها، والبراهمية فى الهند).

المثال الأكثر دلالة على هذا الانتصار «لمعنى القوة»، كما كتب عنه ذكى لعيدى، فى عام ١٩٩٢م، كان فى منتصف القرن التاسع عشر، حيث المآثر والملاحم البطولية الروحية لغاندى فى مواجهة أكبر قوة اقتصادية وعسكرية فى ذلك الوقت: **الإمبراطورية البريطانية**.

يتجسد استيقاظ الإنسان ضد حياة خالية من المعنى والهدف، فى علم **لاهوت التحرير فى أمريكا الجنوبية والوسطى**، وفى **إيقاظ الإسلام** إلى طريق استعادة العالمية، وفى **القيم التقليدية لأفريقيا** التى عانت لفترة طويلة من سكرة الاحتضار نتيجة العبودية والنهب الاستعمارى.

من كل هذا، يتضح أن الإنسانية فى شمولها وتواؤمها مع الظروف يمكن أن تلد عالمًا جديدًا.

يلوح طيف أمل آخر يمكن أن يقدم اليوم بديلاً لهذه الهيمنة العالمية، من خلال مصادر الطاقة المتجددة، ومن خلال تنمية متكاملة وتضامنية.

إن رواد البحث فى هذا المجال من أمثال جلبرتو فربير فى كتابه حول «الإنسان والثقافة والبلدان الاستوائية»، وبوتيستوڤيدال فى أعماله العديدة وخاصة عن «التحدى الأمازونى فى المستقبل» و«حضارة البلدان الاستوائية»، وسرجيو دوسالڤو بريتو، وعدد كبير آخر من العلماء فى البرازيل تحدثوا عن الإمكانية العملية والملموسة ليقترحوا للعالم صياغة حضارية أخرى، أكثر تكاملية وتضامنية (لا تقوم باستبعاد أى شعب فى العالم)، **وتقوم هذه الحضارة على مصادر الطاقة المتجددة.**

سنترك الحديث بصفة محورية إلى رواد هذه الحلقة الحضارية الجديدة ليعرضوها فى سياقها العظيم.

نجد، أولاً، أن سرچيو دوسالڤو بريتو فى كتابه: «مستقبل الحضارة فى البلدان الاستوائية» (طبع بجامعة برازيليا، عام ١٩٩٠م)، أوضح أن: «**أسياد الحضارة الغربية اليوم، يأخذون أشكالاً مختلفة تهيمن أو تؤثر بقوة على الاقتصاد والفكر والتنظيم الاجتماعى ونمط الحياة الكلى لسكان العالم..**».

فبدءًا من القرن الخامس عشر، بدء التوسع العالمى لهذه الشعوب، من خلال التجارة والغزو.

فى سياق هذا التوسع، قامت المصادر الكبرى لقوة الحضارة الغربية (فى إطار منظور الفكر الغربى) بتجريد الغايات، باحثة عن تكريس سبل سيطرتها. أصبح المصدر الرئيسى للطاقة هو الفحم المستخرج من المناجم فى انجلترا وفرنسا وألمانيا، وتطلب استغلال هذه المصادر، وجود هياكل سياسية مركزية للدولة القطرية. لقد قادت تنمية هذا التوسع الغربى إلى انحطاط وانكسار الحضارات الأخرى، وإعادة إنتاج نظام العبودية فى كل صور التبعية والخضوع، حتى داخليًا بالنسبة لبعض الدول الغربية، من خلال استقطاب متزايد للثراء والسلطة، يصاحبه تزايد فى الأعداد الغفيرة للمستبعدين والفقراء.

أسفرت الأنماط الغربية للتكنولوچيا والإنتاج عن خسائر بيئية، مع وقوع أعداد غفيرة من البشر فريسة للفقر والبؤس والشقاء. وتعد أكثر الأمثلة دلالة على ذلك تدمير غابات الأمازون.

الدولة الوحيدة التى يصل عدد سكانها إلى ٥٪ من إجمالى سكان الكوكب، وتستهلك نحو ٣٥٪ من الإنتاج العالمى للمواد الغذائية، هى الولايات المتحدة الأمريكية، وتوجد بها مراكز «للصناعات» الزراعية، تسيطر من خلال الشركات عابرة القارات، على ٨٥٪ من الكاكاو، ونحو ٩٠٪ من القهوة، وتقريبًا ٦٠٪ من السكر، من إنتاج العالم كله. كما توجد حفنة قليلة من الشركات تسيطر على ٩٠٪ من القطن، و ٩٠٪ من الأخشاب.

يمثل تصنيع الزراعة (الصناعات الزراعية)، فى ظل التوظيف الكثيف لرأس المال وحشًا عملاقًا يفترس الطاقة. على جانب آخر، تكشف هذه الظاهرة عن نموذج مجتمع الاستهلاك، إذ إن المعيار الوحيد الذى يتم الاعتماد عليه اقتصادى. ولا تعرف الليبرالية الجديدة إلا خفض التكاليف، بغض النظر عن التكلفة الاجتماعية أو البيئية. حيث إن هناك محركًا يدفعها، لتسعى لاهثة دائمًا وراء تحقيق الربح.

دارسى روبيرو، عالم أنثروپولوچى، أعاد توصيف العالم فى عام ١٩٩١م فى مجلس الشيوخ البرازيلى، قائلاً إنه غير عادل على المستوى الدولى: «**فى بلدنا يوجد نمط جديد صغير من الناس، ينصرف إلى الخضوع المتعصب لعالم الأغنياء،خضوعًا ليس فقط اقتصاديًا ولكنه أيضًا ثقافيًا، ما يحدث فى بلدنا لا يمكن أن نطلق عليه التحديث الذى نعرفه، والذى يرمى إلى تحديث النظام الإنتاجى وجعله أكثر فعالية كمورد للسلع وفق احتياجات السوق، بحيث يساعدنا هذا التحديث أيضًا على تحقيق قفزة نوعية وبناء اقتصاد مستقل تديره مراكز كبيرة لاتخاذ القرار. يجب علينا أن نسعى لتحقيق الوحدة مع الشعوب الأخرى التى يتم استغلالها، من خلال خوض المعركة ووضع حد للنظام الاقتصادى القاسى المفروض على الفقراء الذين يدفعون ثمن ازدهار ورخاء الدول الغنية، من خلال التبادل الدولى غير**

المتكافئ الذى لا يمكن تحمله. ونحن نمتلك كل الموارد اللازمة لتنمية وازدهار حضارة إنسانية وتضامنية. فنحن نملك أجمل وأغنى أقاليم الكوكب.. فهل سنكون قادرين على تنمية إمكانياتنا ومواردنا التى توجد على وفى باطن أرضنا؟ ولماذا يتحتم علينا أن نلعب الدور الرئيسى لزيادة ثراء الدول الغنية وزيادة معدلات الفقر المدقع الذى نغرق فى أعماقه؟ لقد كنا، تاريخيًا، بروليتاريا خارجة عن السوق الدولى، ولم نوجد أبدًا من أجل أنفسنا. لقد وجدنا من أجل العمل فى خدمة الدول الغنية...

إن مستقبل الإنسان، لن يستمر على ما هو عليه الآن؛ لأننا سنصنع هذا المستقبل هذه المرة بأنفسنا. لكن هذا يعتمد فى جزء كبير منه على بناء حضارة جديدة تضامنية ومستقلة، مؤسسة على حياة نابعة من أعماق البيئة الاستوائية. هذه المنطقة التى تعد، حسبما قال هيرودوت، عطية من الشمس».

فكما قال البروفيسور ڤيدال «تلعب الشمس دورًا جبارًا فى إعادة الخلق».

من أكثر الموارد الطبيعية التى يتم الاستهانة بها وتجاهلها من جانب النظريات الاقتصادية المفروضة بواسطة الدول الغنية، الشمس التى تلعب دورًا كبيرًا فى نشأة الغابات، من خلال عملية البناء الضوئى التى تنتج من الطاقة الجبارة التى تستمد من الشمس. تلعب الشمس دورًا محوريًا، إذن، فى استمرار الدورة البيئية والحفاظ على استمرارية الحياة وضمانها.

يصل إجمالى الطاقة الشمسية التى تسقط كل يوم على الدول الاستوائية وغاباتها ما يعادل ٦ ملايين قنبلة نووية من عينة التى تم إسقاطها على هيروشيما. وتوفر الشمس لنا أساس طاقة لحضارة مختلفة.

إن البترول والفحم يعدان من نتاج الشمس، إذ إن تكوينهما قد استغرق ملايين السنين. فى حين أن الفحم النباتى والطاقة الزيتية أو الكتل البيولوچية (الخشبية)(*) يتم تجديدها بصورة دائمة، من خلال عمليات البناء الضوئى.

(*) [طاقة الكتل البيولوچية] يقصد بها الطاقة المستمدة من الخشب ومعالجة النفايات العضوية، إذ إنها تشمل كافة المواد العضوية الحيوانية والنباتية. ويعتمد هذا النوع من الطاقة فى تكوينه على عملية البناء الضوئى والطاقة الشمسية.

لقد دمر الغرب حضارات نجحت فى أن تتكيف مع بيئتها، من خلال فرض نمط الإنتاج الأحادى عليها، مثل نمط إنتاج البن والسكر والفول السودانى وغيرها. لقد هدفت الدول التى خربت تلك الحضارات إلى نهب ثروات هذه الحضارات من المواد الأولية وخاصة البترول والثروات المعدنية. ونجحت هذه الدول فى تخريب وتدمير تلك الحضارات، ليس على مستوى إحداث خلل فى التوزان البيئى فقط، بل وعلى مستوى تدمير أشكال التنظيمات الاجتماعية أيضًا.

إن الاختيار الأحادى لمصادر الطاقة الحفرية غير المتجددة، وحسب المنطق الداخلى للنظام الذى يستخدم كميات متزايدة دائمًا من هذه الطاقة، قد قاد إلى إهدار ونهب الموارد اليوم أكثر من الماضى، لدرجة أنه مع مرور السنين ستصل إلى حد النفاد، كما هو متوقع بالنسبة لنفاد ونضوب البترول، وحتى إذا أدت الاستكشافات الجديدة للثروات المعدنية إلى تعويض هذا النفاد، فإن النضوب الكلى لهذه الثروات لا مفر منه مستقبلاً.

إن نمط استخدام وتوظيف الطاقة غير المتجددة ينطوى على تدمير لمصادر الطاقة الكبيرة المتجددة.

على سبيل المثال، تملك البرازيل حوالى ٣٢٥ مليون هكتار من الأراضى الصالحة للزراعة، نصف هذه الأراضى (التى تمثل ٢٠٪ من المساحة الكلية للبرازيل) يمكن أن يتم استخدامها على مستوى الغابات بصورة مناسبة. ويسمح هذا بإنتاج طاقة - بصفة دائمة - تقدر بما يعادل تقريبًا كل الدول الأعضاء فى منظمة الأوبك.

نستطيع أن نتخيل بسهولة أن الطاقة المتجددة (التى لم تستغل بعد)، عند استخدامها ستغير جذريًا الهيكل الحالى للسلطة العالمية.

فى المنطقة الاستوائية، نجد أن هناك توزيعًا جديدًا للسلطة لم ينته بعد؛ لأن التحول التاريخى لإعادة تأهيل الإنسان الاستوائى فى مناخه الطبيعى، يسمح

بانطلاق مصادر الطاقة المتجددة، وبصفة خاصة المخلفات الحيوية، التى ستساهم فى خلق أشكال جديدة من العلاقات السياسية والاجتماعية، التى تتطلب وضع حد لاستغلال هذه الموارد الطبيعية من جانب أسياد النهب والسلب فى الغرب. كما يسمح بتأسيس نموذج تنمية للاستغلال الأمثل والرشيد لهذه الموارد المتجددة، فى إطار مراعاة النتائج السياسية والاستراتيچية أو البيئية المترتبة عليه.

فقد ذكر تقرير صادر فى برازيليا عام ١٩٨٦م، حول «مشروع الطاقة والتكنولوچيا المتكيف مع الوسط البيئى» أن «السبب الأساسى وراء تدمير الغابات الاستوائية يتمثل فى تنمية هيكل اقتصادى، مؤسس على نماذج تكنولوچية مستوردة، تقود إلى تدمير البيئة».

تتمتع الطاقة المختزنة فى الكتل البيولوچية (الحيوية)، بواسطة طاقة الشمس، بقيمة استراتيچية تمنحها للدول الهامشية من خلال الفرص التاريخية التى توفرت لها من منظور اجتماعى وسياسى، وكذلك من خلال المنظور المعنى بالطاقة.

تعد تلك الطاقة أكثر من مجرد (بديل للطاقة)، إذ إنها تشكل أساس التنمية التقنية والصناعية، القائمة على معطيات واقعية ملموسة ذات علاقة وطيدة بالواقع الاستوائى، واندماج الإنسان فى اقتصاد متجانس مع بيئته الطبيعية.

توجد طاقة الكتل البيولوچية فى منطقة الأمازون، وخاصة فى أجناس النباتات المعمرة، وكذا الزيوت النباتية وقصب السكر والذرة البيضاء، التى يمكن أن تحل محل البترول كمصادر للطاقة.

إن برنامج إنتاج الكحول المنفذ فى البرازيل، على الرغم من ملكيته للأجانب، إلا أنه يعد من الأوراق الرئيسية التى يمكن أن تستخدمها الدولة مستقبلاً فى إحلاله محل البترول، فى إطار تحقيق الاستقلال فى مجال الطاقة. يوجد فى البرازيل حوالى ٤٠٠ معمل أو مصنع، طاقتها الإنتاجية تدور حول

١٦ مليار لتر من الكحـول الإيثيلى. يعد هذا البرنامج الأكثـر أهمية فى قطاع التكنولوچيا الحيوية فى البرازيل، وأحد أهم المشـروعات فى العالم. فبالإضافة إلى هذه الإمكانيات، نجد أن هناك موادّ أوليـة يمكن أن يتم توليد الطاقة منها، وأخـرى تشمل مـوادّ قابلـة للاحتـراق، بشكل احتيـاطى أو بديل للبتـرول. وسيستفيد العالم كله من هذا المشـروع. فى مجال طاقة الكتل البيولوچية، نجد أن البرازيل تقع بـين الدول التى تحوز تكنولوچيا مـتقدمـة، نتيجة بناء هيكل مؤسسى وتـنسيق وإدارة سياسـية. ويعمل على تطوير هذا البرنامج، أكـثر من ١٣٠٠ مهندس وباحث فى البرازيل.

إن تشتيت وبعـثرة الكتل البيولوچيـة فى الأمازون، يمكن أن يلعب دوراً فى توزيع السكان بصورة غـير مركـزية على مختلف أرجـاء هذا الإقليم البرازيلى الشـاسع. ففى حـالة البـرازيل، ستـسـاعد هذه الطاقـة على تحـويل التنظيم الاقتصـادى والاجتماعى والسياسـى للدولة إلى تنظيم تابع للإنتاج المرتكز على الطاقة الأساسية، التى تغطى مساحات واسعة من التجمعات الحضرية.

إن بديل تطبيق الطاقة المستمدة من الكتل البيولوچية يقوم على صورة جديدة لاستغلال الإقليم، تقود إلى مفهوم جديد للحضارة.

لا ينصرف الأمـر هنا إلى السلب والنهب المنظم للغـابة، كمـا قال جى بى ڤيدال، ولكن ينصرف إلى استخدام واستغلال رشيد، يرمى إلى حماية وصيانة التراث الـطبيعى لـلدول المدارية الاستـوائية، من خـلال طريق صيانـة ورعاية الغابات بصورة منتظمـة فى مختلف الأقاليم. كما أن استـخدام الزيوت النباتية يقدم شروطاً ممتازة لتوفير وإعداد بدائل لزيت الديزل.

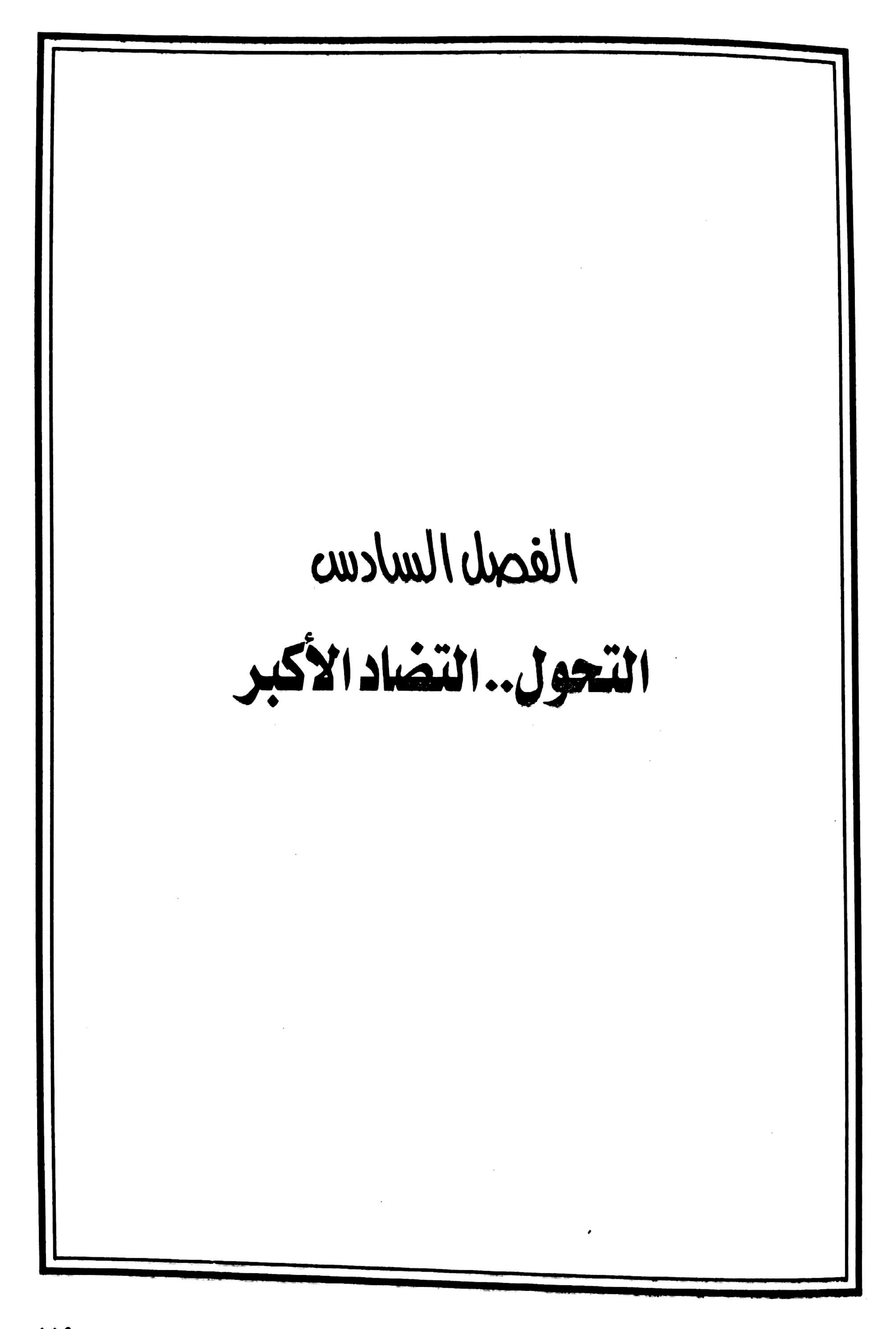
فيمـا يتعلق بإنتاج الإيثانـول، تستطيع البرازيل بواسطة التكنولوچيـا المتاحة حاليًـا أن تنتج سنويًا فى المتوسط ٦ آلاف لتـر لكل هكتار، بدءاً من استـغلال قصب السكر والمينهوت (جنس نبـاتات معمرة من فصـيلة الفربيونات). وتنتج كـذلك نحو حـوالى ٥٠ مليـار لتـر سنويًا (ما يعـادل ٧٧٠ ألف برمـيل من

الكحول يـوميّا)، التى لن تحـتاج فى إنتـاج هذه الكميـة إلا إلى ٨,٥ ملايين هيكتار تشغل مساحة ١٪ من الأقليم.

باستخدام هذه الأرقام وهذه الأمثلة على المسـتوى الدولى، نجد المتخصصين يؤكدون أن تنميـة الغابات وثقافات الطاقة الاسـتوائية، يمكن أن يلعب دوراً فى إشباع جميع الاحتياجات العالمية.

بفضل الإمـكانيات الاقتـصادية والنتـائج الاجتمـاعيـة والتوسع الكبـير فى توظيف الطاقة المتولدة من الكتل البيولوچية، يمكن أن تصبح هذه الطاقة، على المدى القصير، القـائد الرئيسى لقاطرة التنمية فى العالم الاسـتوائى. وستصبح على المدى الطويل، أداة جبارة لتحويل هيكل السلطـة العالمى وإحداث تغييرات راديكالية عليه.

***



الفصل السادس

التحول.. التضاد الأكبر

التحول.. التضاد الأكبر

لا يمكن أن يحدث تحول راديكالى لعملية التنمية الإنسانية انطلاقًا من معايير سياسية واقتصادية فقط، بل يجب أن يرتكز هذا التحول على تغيير الإنسان نفسه، من خلال تحديد واختيار غاياته النهائية التى ستسمح له بأن يصبح إنسانًا حقيقيًا.

يعنى هذا انقطاعًا فى استمرارية الأنماط التقليدية للتنشئة والتنمية التى لم تنجح حتى هذه اللحظة فى تحقيق إنسانية الفرد، أى أن وحدة إنسانية حقيقية ستسمح لكل البشر فى العالم بالاستفادة من إمكانياتهم.

إن العالم المهشم، عالم بلا هدف، عالم يرثى له، نتيجة الإدارة غير المقبولة لهذا العالم، الذى لا يعرف كيف يهرب من مصير التفكك والموت، لاعتبارات وهمية أصبحت ذات مفعول سحرى، وذات تأثير مباشر وسريع، سواء أن كانت اقتصادية أو سياسية أو دينية.

إن هذا التحول الراديكالى يعد الوحيد القادر على إنقاذ القرن الواحد والعشرين من مصير الانتحار الكوكبى من جانب، والاستعداد للقيامة من جانب آخر.

لكن الأمر لا يقتصر على عملية عاجلة وطارئة لإحداث تحول حقيقى فى الثقافة على مختلف أبعادها: علاقاتنا مع الطبيعة، وعلاقاتنا مع البشر (مع «الآخر»)، وكذلك علاقاتنا مع الله.

إن تحقيق هذا، يفترض إحداث تحول «تضاد» راديكالى:

أ- **فى التعليم:** الذى تجاهل وظيفته الأساسية فى مجال البحث عن غاية ومعنى للحياة.

ب- **فى تحديد مفهومنا لمعنى الفنون التى لم تعد تلعب دورًا فى إعادة تشكيل** الإنسان ولا تهذيبه ولا بعث طاقات الخير والإبداع فيه.

جـ- **فى الحب**: الذى نجد معناه المقدس فى الإنسان الحقيقى، مقابل كل مظاهر التناقض والانحراف الأخلاقى حاليًا بين أوساط الشباب - خاصة الذى سلطنا عليه النزعات الغريزية الجنسية - وبين أوساط الكبار الذين مزقت المادة والفساد وحب السيطرة إنسانيتهم.

د- **فى الإيمان**: الذى يوحد بنى آدم ويساوى بينهم فى أمة واحدة.

نتحدث اليوم، على سبيل المثال، عن ارتفاع معدل ارتكاب الجرائم من جانب الشباب، للحد الذى أدى إلى ظهور مشكلة أساسية تتعلق «بالأمن».

إن ما نرفضه هو «تنمية» معدل السلوكيات ذات الصلة بارتكاب الجرائم، خاصة من جانب الشباب، نتيجة تفكك العلاقات الاجتماعية والوطنية والدولية.

إن الواقع لا يمكن إنكاره، لم يعد اليوم هناك قانون دولى: إنما هى إرادة قوية لدولة ما، تستغل تفوقها العسكرى فى فرض إرادتها. **يصبح إذن الأكثر تسليحًا، هو الأكثر قدرة على ارتكاب الجرائم**. إن «قادة» هذه القوات المسلحة يعدون الأكثر والأعلى «إجرامًا»، نتيجة الجرائم التى ارتكبوها فى الحروب ومعسكرات الموت ضد المعارضين أو ضد الأقليات العرقية، مثلما فعل هتلر، وتشرشل فى مدينة دريسدن، أو ترومان فى هيروشيما، فى ظل استخدام القنابل الفوسفورية أو القنابل الذرية ضد المدنيين، أو النابالم فى ڤيتنام، وعمليات الضرب اللا إنسانى بالقنابل فى العراق، والحصار الذى تم فرضه ونتج عنه وفاة طفل كل سبع دقائق. فى حين أن القيادات العليا، من عينة نيكسون أو كلينتون أو ريجان وبوش، أعلنت دون أى حرج ولا مواربة أن الأمر لا يقتصر على «الدفاع عن حقوق الإنسان»، ولكن قامت المذابح بدعوى حماية «المصالح الوطنية». **لقد استطاعت إسرائيل أن تنتهك ٢٥٠ قرار من قرارات**

«الأمم المتحدة» منذ نشأتها، نتيجة تمتعها بالحماية والدعم غير المشروط من جانب القوة العظمى التى تمتلك تكنولوچيا التدمير الأكثر فعالية فى العالم.

يمكن أن نضيف إلى ذلك، أنه يتم من خلال سيطرة رأس المال تجويع ثلث الإنسانية، عن طريق البطالة والاستبعاد، حتى فى الدول الاستعمارية سابقًا، وكذلك عن طريق اصطياد جميع الشعوب فى عملية «العولمة» التى تسمح على المستوى الدولى للأكثر قوة بافتراس ونهب الأكثر ضعفًا. ولا يجب أن نتجاهل أن الجريمة على المستوى الفردى، إنما هى على علاقة جدلية بالجريمة الجماعية التى تضطلع فيها الأمم الإمبريالية أو الشركات متعددة الجنسية ضد الدول والشعوب الضعيفة.

ومن ناحية أخرى، أن الذين لم تترك لهم فرصة للحياة الكريمة أو التمتع بمستقبل مشرق، ليس لديهم أى خيار.. فأصبحت الجريمة ملاذًا لهم، أو وأد أنفسهم للتخلص من شقاء الحياة، فإن لم يقم الأغنياء من الدول والشركات بارتكاب جرائم ضدهم، ارتكبوها ضد أنفسهم ومجتمعاتهم!

إن عدمية دوستويفسكى قد تجسدت فى: «أنا لا أملك القوة أو السلطة لأخلق إنسانًا، لكن تتوفر عندى السلطة اللازمة لتدميره».

وستزداد بالضرورة فى هذا المجتمع معدلات العنف: السيارات المحترقة، والمحلات التجارية المحطمة، وعنف الفئات التى تحس بالاضطهاد فى المجتمع نتيجة البطالة والفقر، ضد أى فرد أو مؤسسة فى المجتمع، خاصة الضعفاء فى المجتمع من أطفال وشيوخ. إن هذا العنف، هو الخيار الوحيد الذى يقدمه العالم لهم، إذ إنهم يشعرون بالمرارة «العميقة»، نتيجة البطالة، أو الاحتياجات التى لا يمكن الوفاء بها.

فى سياق اجتماعى مؤسف، لا تستطيع المدرسة أن تخدم المجتمع، بل يمكن أن تلعب دورًا غير مباشر فى زيادة الاتجاه الخطير لممارسة سلوكيات عنيفة، تتعلق بالعدوان والعنف وحب التملك.

وتزيد «العولمة» قـدرة قادة الشركـات متعـددة الجنسيـة على نهب الثروات.

ويتجسـد الدور الأعظم للعولمة فى تحديد الفئات التى تعـيش «تحت خط الفقر» (مثلمـا يتم ذكره وفق إحصـائيات المؤسسـات الدولية من دافوس إلى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى حتى الأمم المتحـدة). تعمل العولمة على نشر وبث أيديولوچيتها من خلال صورة «مـحور هولى وود - وول ستريت»، كما صوره المخرج السينمائى كوبولا.

لا تستطيع المدرسة أن توفـر إلا مجموعة من الوسائل: من التـاريخ إلى الفلسفة، ومن العلم إلى الفنون والدين.. لكى تعـد الطفل والتلميذ والطالب لكى يقـبل ما لا يمكن قبوله!!

التعليم: الإنسان حيوان خارق للطبيعة

إن الأزمة التى نعيشها تتمثل فى استمرارنا فى الاتجاه الحالى الذى نسير فيه، فى اتجاه الانتـحار الكوكبى، على حـد سواء؛ بسبب التنمـية اللامتكافـئة التى تقود إلى ظهور عنف الجماعات المحرومة، والانفـجارات الاجتماعية التى تأخذ صور القـومية الشـوفينية الكارهة للأجـانب، لدرجة أن يمنعوا من الحـياة، أو الأصوليـة التى تقوم بالانغـلاق على الذات ورفض الآخر. فـى كل الحالات، سنجد أن النتيـجة ستكون الإرهاب الذى سيقود إلى الفـوضى الدموية وسيادة الاضطهـاد والقمع. إن من يحـاولون إخـفاء الحـقيـقـة تحت تهديد «التـدخل الإنسانى»، إنما يسعون إلى فرض الهيـمنة والسيطرة فى صورة أقوى، كمظاهر جديدة للاستعمار، بدعوى الدفاع عن الإنسانية.

وحتى نكون على وعى تجاه هذه الانكسـارات والتيارات، علينا أن نتعلم أن نحارب. فالتعليم لا يستطيع أن يكتفى بعمليات «إصلاح التعليم». **إن ما نحتاج إليه يـتمثل فـى تغيير جذرى، ليس لـوسائل تطوير وتعـديل النظام، ولكن بالنسبة لغـايات النظام التـى يجب أن تعـبر عن مـصـالحنا، وليس عن مـصـالح المهـيـمنين المسيطرين.**

يوضح لنا تاريخ التعليم أنه، حقًا، يعكس النظام الذى أسسه، والوظيفة المحورية الذى تم تخليده من أجلها.

لا نستطيع فى بضع صفحات أن نطرح كل الأشكال والقضايا السابقة والآنية.

المشكلة الأكثر عمومية بالنسبة «للمدارس»، لا يتم طرحها إلا فى مناسبات الانكسار الاجتماعى، بهدف الإصلاح والنهضة.

إن التعقيد الزائد للتنظيم الاجتماعى يتطلب كيفية الإجابة على دور التعليم فى إشباع الاحتياجات الجديدة التى تظهر فى ظل تغيرات المجتمع التى تنتج عن ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

يعود بناء «المدارس» ونشأتها فى بدايته إلى المبادرات الخاصة، منذ القرن السابع عشر، وتحديدًا فى القرن الثامن عشر. وهدفت إلى تنمية وتطوير آلية تشكيل الأيدى العاملة، تأهيلها، وتوفير قيادات لإدارة هذه الأيدى العاملة وتوجيهها، خاصة فى المصانع والورش، وبناء مؤسسات التدريب والتعليم لمهنة أو صنعة ما.

عملت الثورة الفرنسية على تنظيم مؤسسات جامعية وعلمية. ولم تعد هذه الجامعات قاصرة على النخب، كما كان حال «كولاج دوفرانس». المدرسة الثانوية، حيث تعلم نابوليون العسكرية، قامت بتشكيل الضباط وتدريبهم على استخدام السلاح، وتعليم موظفى الإدارة. وقام اليسوعيون «الجزويت» بإدارة وتنظيم العديد من الكليات فى تلك الحقبة، وأتقنوا تعليم فروع المعرفة الخاصة بالوظائف المستقبلية للطلبة، كما أتقنوا فروع المعرفة الخاصة «بالإنسانية».

منذ ذلك الوقت، من القرن التاسع عشر إلى العشرين، بقيت الاحتياجات كما كانت عليه دون تغير، مع ضرورة التكيف مع العقليات الجديدة والتقدم التكنولوجى. فمنذ بدء عمليات الترميم والإصلاح، مع مدام فايتسمنيل،

وحتى قائمة طويلة تشمل: «وزراء التعليم» أو «الثقافة» (باستثناء مالرو)، قد طرحوا ـ بغض النظر عن انتمائهم لليمين أو لليسار ـ ثلاث قضايا اختلفوا عليها:

١- كيف يتكيف التلاميذ والطلبة على المتطلبات التكنولوچية الاقتصادية الجديدة من خلال «تطوير التعليم الفنى»، الذى دائمًا (وبالضرورة) متخلفًا عن الاحتياجات الحقيقية للمصانع والشركات، حيث تتطلب «المنافسة» إبداعًا مستمرًا؟

٢- من وجهة نظر اجتماعية، الهم الخاص بشأن كيفية حماية الشباب «المتعلم» فى إطار «النظام والقانون». هذا الاهتمام الخاص «بالمجد» - الذى تسعى إلى تحقيقه شعوب أو فئات اجتماعية ينتمى إليها هؤلاء الشباب - يتم التوصل إليه من خلال التنافس (الخصام والشجار الدائم والمتواصل) «بين البشر». إن مشكلة الحصول على مكان يتم إعطاؤه للتعليم اللاتينى، تأتى فى المرتبة الأولى على سلم وخريطة الأولويات؛ لأن معرفة وإتقان اللاتينية مثلت أحد مظاهر النبل والتفوق الثقافى والفكرى.

لقد كانت اللاتينية لغة الكنيسة والمدرسة، التى تخرِّج رجال الدين والسياسة والنظام.

بالنسبة لفيكتور دو لابراد، أعداء الثقافة اللاتينية تمثلوا فى «الماديين والملحدين والمتمردين الثوريين والاشتراكيين». وبالنسبة لرئيس الأساقفة كوب فان «كل تراجع للثقافة التقليدية، كان يمثل تهديدًا لأسس المسيحية».

٣- موضوع النقاشات (النزاعات والمشاجرات)، وبصفة خاصة فى البرلمان، التى غلب عليها صفة «العلمانية»، وكانت تطرح بعنف، منذ عام ١٩٠٤م، فى ظل قانون الفصل بين الكنيسة والدولة.

فى حالة المدرسة، كانت المشكلة يتم طرحها بصورة سيئة، من خلال الخلط بين سؤالين محوريين للتمييز بين:

- الفصل بين الكنيسة والدولة كان مشروعًا: فكل مواطن يستطيع أن يختار الديانة أو اللاديانة، من خلال المعنى الذى يعطيه لحياته. كما أن تدخل أو هيمنة الكنيسة فى السياسة لم يعد مقبولاً.

- فيما يتعلق بالمدرسة، أصبح هناك دفاع عن مبدأ يتعلق بأن لكل طفل أيّا كان إيمانه، حقّا متساويًا فى الحصول على التعليم العام، والانتماء إلى الطائفة التى يختارها (الجماعة الدينية).

لسوء الطالع، تم تفسير القانون بصورة غير منطقية، لا تساعد تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات على أن يجدوا معنى لحياتهم، التى لم يكن يضعها التعليم فى مقدمة مهامه. أضف لذلك معول استبعاد الكنيسة الكاثوليكية (الأكثر اتباعًا فى فرنسا) ومنعها من ممارسة تأثيرها على المدرسة. كما استبعدت برامج المعرفة الخاصة بالجزء الأكثر أهمية فى الثقافة الإنسانية. وكانت الثقافات الأجنبية قاصرة على من يختارون تعلم لغة أجنبية (فعلى سبيل المثال، لم تتم دراسة شكسبير وجوته وسرفانتس، إلا فى فصول تعلم اللغة الإنجليزية والألمانية والإسبانية). كما تم استبعاد أى نص يتعلق بعقيدة أى شعب آخر، حتى على مستوى الطلاب فى المدارس العليا أو مستويات إجازة الأستاذية.. فقد تم استبعاد النصوص ذات الصلة بالإيمان والعقيدة: لم يقتصر الاستبعاد على نصوص الكتاب المقدس فقط، بل وقد امتد إلى القرآن وكتب الهندوس والبوذيين. بدلاً من أن تأخذ العلمانية بمبادرة الاهتمام بالثقافة والإيمان لدى كل الشعوب، لكى تسمح لشبابنا اختيار الصياغة المناسبة لحياتهم، (فالمدارس لا توفر لهم سوى المعارف الخاصة بالمهن والتخصصات، معرفة بالوسائل). **تجاهلت المدارس أن تمنح أية إمكانية للتفكير فى الغايات ومعنى الحياة.**

فى كلمة واحدة، لم يعد فى المدرسة اهتمام بالإنسان، ولكن بالميكانيكى أو الطبيب، أى الاهتمام بالتقنيات وبمواطن مطيع: استعمارى فى وقت مضى، وقومى متعصب من خلال جهله بالآخرين طوال الوقت (نتيجة وقوعه فريسة للقومية الشوفينية).

مثال خاص يجسد لنا هذه الحقيقة: **جوليس فيرى** الذى نطلق عليه مؤسس المدرسة العلمانية، قام بالتحريض على اتباع سياسة إمپريالية عدوانية، عرضها فى الجمعية الوطنية، خلال خطابه الذى ألقاه فى ١٨ يوليو ١٨٨٥م حول مبادئ الاستعمار والعنصرية التى طبقها: **«نعم، نحن نملك سياسة استعمارية، سياسة توسع تم تأسيسها بمنهجية» (الجريدة الرسمية، ٢٧ مارس ١٨٨٤م، ص ١٠٥٨).**

«هذه السياسة الاستعمارية ترتكز على مثلث ثلاثى القواعد: اقتصادى وإنسانى وسياسى قومى» (نفس المرجع، ١٠٦٢ص).

١ - الحجة الاقتصادية: «تمثل المستعمرات بالنسبة للدول الغنية مكانًا لاستثمار رءوس الأموال المغامرة». وقد عبّر عن ذلك ستيوارت ميل الذى خصص فصلاً كاملاً فى كتابه لتوضيح هذه الحجة أو المقولة، عندما قال إنه «بالنسبة للدول القديمة والغنية فإن الاستعمار يعد أفضل صفقة يمكن أن تقوم بها».

٢- الحجة الإنسانية: تساءل كميل بللتان: «ما هى تلك الحضارة التى نفرضها بقوة المدافع؟»

جوليس فيرى: «أيها السادة، عن هذه الأطروحة، لا أتردد فى القول بأن: هذا ليس من السياسة ولا التاريخ، إنما هذا من الميتافيزيقا السياسية. أيها السادة، يجب أن نتحدث بصوت أعلى وأكثر صحة: **يجب أن نقول بصراحة إن الأعراق الأعلى، لها حق على الأعراق الأدنى»**(*).

السيد مين: «أتجرؤ على قول هذا فى البلد الذى طالما نادينا فيه بحقوق الإنسان؟».

السيد چيوتل: «إنما هذا لتبرير العبودية».

(*) يبرر الاستعماريون العلمانيون، أو الليبراليون، فى الغرب استعمار الشعوب واستنزاف ثرواتها، مع ما يصاحب ذلك من ظلم وقهر واستعباد، بالعنصرية العرقية ... الأعراق الأعلى لها حق على الأعراق الأدنى ... طبقًا للداروينية الشاملة: البقاء للأصلح. ويبرر الاستعماريون المتدينون فى=

جوليس فيرى: «**إذا كان إعلان حقوق الإنسان مكتوبًا من أجل السود فى أفريقيا الاستوائية، فأى حقوق ستفرضونها عليهم بشأن المرور والمبادلات التجارية؟**».

٣- **السياسة القومية**: دون إيضاح أصولها فى ظل الملكية، فقد لاحظ كليمنصو أن «**فرنسا.. جندى الله المتغطرس.. أصبحت الجندى المدافع عن الإنسانية.. وستكون بذلك دائمًا الجندى المثالى**»(*).

وحسب ميشيلى أيضًا: «**فرنسا سامية كعقيدة وكأسطورة.. وحبر من أحبار زمن النهضة**».

إن هذا المعنى الأزلى قد سبق حتى وجود شعبها.

يتحدث لافيس بسهولة عن، «ما أرادته فرنسا». منذ تعليم المدرسة، تجسد فى الاتحاد المقَدس، ولا يختلف كل هذا، عما نادى به فيرى حول الاستعمار.

منذ لافيس وحتى عام ١٩٧٠م، تطور المناهج والكتب المدرسية «**قاطرات للعنف والغزو من الحملات الصليبية حتى الاستعمار**».. كلها تسير فى ذات المعنى التاريخى. يبقى لافيس على نفس ما نادى به جرجوار دى تور بشأن: **قسطنطين الجديد، أو قوس «الملك المسيحى جدًا» الذى يسير على هدى داود النبى، ويصبح قديسًا مع حلول نهاية القرن الرابع عشر**.

من الآن فصاعدًا، سيكون هذا التاريخ الأيديولوچى فى خدمة الجمهورية

= الغرب، وخاصة الأصوليين، بأنهم مكلفون برسالة إلهية لتحضير وتمدين العالم... اتخذ ذلك التبرير الاستعمارى العدوانى أسماء ومصطلحات عدة: حمل الرجل الأبيض - عبء الرجل الأبيض - رسالة الرجل الأبيض - المصير (أو القدر) المحتوم - المصير (أو القدر) المبين لشعب الله المختار.

واليوم أصبح لكل ما سبق الاصطلاحات التى تليق بالعصر: نشر الدين المدنى - نشر القيم الديمقراطية الليبرالية - نشر القيم الأمريكية...

(*) لاحظ كيف تتحول العلمانية إلى أصولية دينية متطرفة، تنهل من أخطر أساطير الدين والتاريخ: أسطورة الشعب المختار.

(بشأن مشكلة دور التاريخ انظر: سوزان سيترو: الأسطورة الوطنية: تاريخ فرنسا، الوثائق الفرنسية، ١٩٨٧م).

تعبر «القومية» عن كراهية الأجانب عن طريق مهاجمة «المهاجر» وجعله السبب الوحيد لتفشى البطالة والعنف فى مجتمعنا، بدلاً من تحديد المسئولين الحقيقيين الذين أجبروهم على الهجرة، نتيجة نهب وسلب موارد بلادهم، خلال الحقبة الاستعمارية، ولأن صندوق النقد الدولى وأسياده الأمريكيين والشماليين يمنعون شعوب تلك الدول من الحياة فى بلدانهم آمنين.

***

بدأ التعليم من خلال التدريب على تعلم القراءة، كطريقة ترمى إلى التفرقة الراديكالية بين نوعين من التربية **«التربية على الهيمنة والسيطرة، والتربية على الحرية»**.

سأتعامل بعض الشىء مع هذه المشكلة التى تمثل جوهر القراءة والكتابة؛ لأن أهميتها تكمن فيما قد قاله أحد أهم معلمى ومربِّى القرن: پاولو فيرارى (برازيلى)؛ لأنه لم يكن بالصدفة أن المسألة قد تم طرحها بجدية لأول مرة من جانب رجل من «العالم الثالث».

لقد استشعر السياسيون الخطر الذى لفت پاولو فيرارى الأنظار إليه، لذا قامت وزارة التربية والتعليم بتعيينه مديرًا بالوزارة. ولكن بعد الانقلاب العسكرى الذى شهدته البلاد عام ١٩٦٤م، رمى فيرارى أسيرًا للسجن والنفى.

كانت أسباب استبعاده بديهية تكمن فى أنه عام ١٩٦٠م، لم يكن لمن يجهلون القراءة والكتابة حق الانتخاب والتصويت، ومن ثم فإن أغلبية الشعب كانت مستبعدة من الحياة السياسية الشرعية (١٥ مليون ناخب كانوا مسجلين من ٣٤ مليون نسمة فى سن أكثر من ١٨ سنة)، وهو ما يقابل فى المجتمعات الأوروبية ما يطلق عليه «إحصاء الأصوات الانتخابية» أو «المجمع الانتخابى».

تشكلت المنهاجية التى تحدث عنها پاولو فـيرارى فى التمييز بين من يجهلون القراءة والكتابة ومن يتمتعون بالوعى، على نحو مثل تهديدًا للنظام. فى ولاية برنمبـوكو، تجـاوز عدد الناخـبين ٨٠٠ ألف، ليصل إلى مليـون ألف ناخب، بفضل جهود فيرارى.

تمثلت السمة الرئيسية للصياغة الجديدة لجهود مكافحة الجهل بالقراءة والكتابة (التى تعد قريبة جـدًا من السمة الخاصة «بلاهوت التحـرير») فى الاعتماد على الحوار: حيث يقـوم الأمى (من يجهل القـراءة والكتابة) أولاً بالحديـث للتعبـير عن احتياجـاته. فى حين، لا يكتـفى المعلم بشرح وإيضـاح الحروف والكلمـات، ولكنه يحـاول كشف الحـقيـقة لكل من يقـوم بتعليـمهم من جـماهيـر القريـة. إن الأمر لا ينحصر، إذن فقط، فى «قراءة» النصوص المكتـوبة، ولكنه يتعلق بقراءة العالم، حيث إننا قـد تجاوزنا مـرحلة القـراءة التقـليدية للكتب إلى قـراءة الواقع، بدءًا من تحـديد الاحتياجات، وتجاوز التناقضات، وتعلم كيفية تجاوز العقبات.

لقد تجسدت خـصوصية منهاجية پاولو فـيرارى فى الانطلاق بدءًا من الخبرة المعاشـة، والتعبير عن الأمـيين ومساعـدتهم فى الحصول علـى الوسائل التى تمكنهم من التعبيـر عن أنفسهم واحتياجـاتهم، من خلال الحروف والكلمات، وسيشكل ذلك وسيلة للتغيير فى المستقبل.

لقد عبـرنا من مرحلة «مدرسة الصمت»، حيـث الكلمات المكتوبة لا تنطق ولا تعبر عن الواقـع أيًا كان، إلى مرحلة «ممارسة الحرية»، مـن خلال التحلى بالوعى والتـعبيـر عن الواقع المعاش، للبـحث عن الوسائل التى تسـاعدنا فى إحداث التحـول والتغييـر. وتعد هذه المنهاجيـة، منهاجية لتـعلم القراءة داخل مؤسسة، لم يعد يطلق عليها مـسمى المدرسة، لكن يطلق عليها «حلقة أو دائرة للثقافـة» للأميين من الناضجين والأطفال على حد سـواء. ولقد حدد ووصف پاولو فيرارى فى كتبه الأسـاسية، ما أطلق عليه («تعليم المقهورين» - ١٩٧١م) و(«التعليم: ممارسة الحرية» - ١٩٧١م).

فى سياق المنهاجيات التربوية والتعليمية، نحاول فقط «إصلاح» «وسائل التعليم»، تكمن المشكلة هنا فى التحول الراديكالى الذى طرأ على «الغايات» الخاصة بالتعليم، الذى لم يعد يرمى فقط إلى كمال وسائل تعليم الأطفال فى العالم، بل أصبح يهدف إلى تعليمه كيف يفكر فى نفسه؟ وكيف يفكر فى غاياته الأساسية؟ وكيف يبتدع الوسائل التى تسمح له بالمشاركة فى تغيير العالم؟.

على سبيل المثال: يتسم تعلم اللغات الحية بأهمية بديهية؛ لأنها تساعدنا عند التعرف على اللغات الأخرى الضرورية، فهم الواقع المحيط بنا فى جزئياته، من خلال عملية التقطيع والتفكيك التى نقوم بها للواقع، الذى تمثله كل لغة، والتدرج والاختلاف اللغوى المحلى الذى يعبر عن الاختلاف والتنوع.

إن تعليم لغة مختلفة بصورة راديكالية عن لغتنا، مثل اللغة الصينية، يمكن أن تعطينا مدخلاً عظيمًا و أفضل لفهم «الآخر» وثقافته، خاصة الثقافات «غير الغربية»، وتحديدًا تلك التى عانت من الاستعمار. نضيف أن كل نسمة من خمس فى العالم هو صينى الثقافة والجنسية، وأن تعليم لغة تسمح على المستوى العالمى بتحقيق التغير والتحول الجذرى فى العلاقات الإنسانية، أفضل من تدمير الثقافات الأخرى، لمصلحة هيمنة لغة واحدة ألا وهى الإنجليزية.

يذكر أن الثقافة الغربية تتجاهل حوالى ثلاثة أرباع العالم فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ويجب التذكير بأن الحديث عن «الإنسانية» بصفة عامة مقيد ومحصور على فئة ضيقة ومعينة.

فهل نستطيع مساعدة أطفالنا وشبابنا على اختيار طريق النقد التمييزى؟

***

فيما يتعلق بالتاريخ الذى يدرس رسميًا، تجدر الإشارة إلى پول فاليرى، من

خلال «نظراته على العالم الحالى»؛ لأنه توصل إلى الأساس الأيديولوچى الذى انطلق منه الغرب للنظر إلى العالم من خلال:

أ- **الحكم المسبق من وجهة نظر المركزية العرقية لأوروپا**، على اعتبار أنها الحضارة الوحيدة الخلاقة للقيم والقادرة على طرح المبادرات التاريخية (هذه البديهية أصبح مشكوكًا فيها اليوم، بعد أن أصبحت أوروپا تابعة وخاضعة لأمريكا، ولا تتوقف عن التدليس لمصلحة أمريكا منذ أكثر من خمسين عامًا).

ب- الحكم المسبق بشأن سمو وتفوق هذه الحضارة على الجميع، باستثناء اليهود، وعلى اعتبار أنها الوريث «**للمعجزة اليونانية**» والنظام الرومانى.

لقد أدى ذلك إلى طرح أنماط «خطيرة» قامت بصياغة هيكل وبنية سياسية، توفر عمق وخلفية للمعايير السياسية التى أصبحت أكثر غموضًا من جانب رجال السياسة التكنوقراط فى مجتمعنا.

اليوم، داخل مدارسنا، وبعيدًا عن الأوهام التى يتم تسويقها إعلاميًا بصورة غير إنسانية، أصبح الحديث ينصرف عن «ملوك مسيحيين جدًا»، أو «آباء الديمقراطية»، ويتم تشبيههم فى الكتب والمناهج المدرسية بداود النبى الملك أو قسطنطين. لا أسعى هنا إلى استرجاع ذكريات من العصور الوسطى، تتمثل فى كاتدرائياتنا الجميلة والصور المنحوتة للملوك على العملات الذهبية، ولكن للإشارة ببساطة إلى فصول مخصصة عن «الملك الشمس»، لويس الرابع عشر فى تاريخ فرنسا، الذى وصفه أحد أهم الأساقفة الأحبار الكاثوليك، بوسيه - الذى قدم نظرية شهيرة حول الملكية المطلقة - قائلاً إن: «**لقب المسيح قد أعطى للملوك، ولذا نراهم فى كل مكان مدعوين بالمسيح أو بمسيح الرب. فالملوك، أنتم أيها الملوك آلهة.. هذا يعنى أنكم تملكون السلطة، وتحملون على جبهاتكم الهالة الإلهية المقدسة**».

لقد كان ذلك رأى وموقف الكنيسة الرسمى فى فرنسا فى عام ١٦٢٦م، وكذلك مجمع الأكليروس الفرنسى الذى أعلن أن «الملوك ليسوا مأمورين فقط من الله، إنهم

آلهة أيضًا». كما لخص هيبوليت أدولف تين هذا المفهوم قائلاً: «الله، فى القرن الثامن عشر، كان فى صورة من صوره لويس الرابع عشر»، (حكايات لافونتين).

فبعد استحضار الأحداث الأكثر أهمية خلال حكم داود وقسطنطين، نذكر أن فى هذه «القرون العظيمة» وممثليها الذين نجد صورهم فى مدارسنا اليوم، نجد أن هناك قاسمًا مشتركًا بين «أجدادنا الكبار»: داود النبى (قائد الجيوش فى الحروب)، وقسطنطين «الكبير» وسياسته الشمولية.

لويس الرابع عشر: (١٦٣٨م-١٧١٦م) وامتد ملكه لنحو ٥٤ عامًا، اعتبر نفسه كإله وكبطل.

المجد الذى سعى إليه لويس الرابع عشر قد كلفه الكثير. فالملك لويس الرابع عشر، حتى يحقق ذلك المجد، لم يعرف إلا سبيلاً واحدًا: الحرب من أجل سلب ونهب موارد وثروات المهزوم، والحصول على الذهب والفضة فداء للأسرى.. بل وقد فرض الضرائب بصورة مجحفة، حتى على شعبه، ليكتنز الثروات فى خزائن قصوره.

فى ذروة قوته، عمل لكى يكون الضامن والحامى لمعاهدة وستفاليا التى أدت إلى نشوء الدول «القومية» المستقلة، وكانت معولاً لفتح الطريق أمام سياسة الغزو والفساد والاستقطاب للإمارات المفتتة فى أوروبا.

إن ولعه الشخصى بالسلطة دفعه لكى يحطم أى عقبات تقف فى سبيله. فعلى سبيل المثال، فيما يتعلق بالدين، عرف كيف يتحلى بورع وتقوى الفريسى المنافق، متمتعًا بحياة خاصة موحلة فى الرذيلة. وقد تزوج جبرًا لاعتبارات سياسية، حتى يعطى الصفة الشرعية للعديد من أبنائه الذين كانوا نتاج علاقات غير شرعية أمام البرلمان. وقد منحهم ألقاب الأمراء، وزوجهم من بنات الأمراء اللاتى ربطت بينهم صلة الدم. ولم يتردد فى التعبير عن مطامعه فى الاستحواذ على التاج الملكى فى إسبانيا، وحاول تحقيق غايته هذه من خلال الحرب.

تجنب أى صراع مع الكنيسة الرسمية. واستقبل الأكليروس الفرنسى ورئيسهم، وكان يقدم لهم عطية عرفت باسم ٥×٥ سنوات «كعطية ومنحة مجانية» تعبر عن رشوة ملكية للكنيسة.

وعلى النقيض من أى دعم للروحانيات، ظهرت أعداد غفيرة من المتزمتين فى الرأى الذين شعروا بالاضطهاد، نتيجة تبنى العقيدة الرسمية للسربون والبابا.. وبدأت تظهر حالات التدين «الوحدوى»، من خلال التعبد الانفرادى.

ولقد كانت عمليات الاضطهاد شديدة ضد البروتستانت، من جانب قوات الملك والبابا. واتسمت عمليات القمع بالوحشية والبربرية، من حيث التنكيل والاختطاف والمذابح التى نظمت ضد «العساكر غير النظاميين»، وإثارة الرعب والهلع فى صفوف المقاومين المعارضين، حتى لا تظهر طائفة دينية إصلاحية جديدة داخل المملكة.

نتج عن هذه السياسة الطائفية كوارث عظيمة لحقت بفرنسا؛ لأن الجزء الأكبر من الجماعة البروتستانتية كان يعمل بالصناعة، ونتيجة المذابح فر هاربًا خارج فرنسا. ورحبت بهم الدول التى هربوا إليها، واستقبلتهم بحفاوة بالغة، نتيجة ما حملوه معهم من ثروات وخبرة صناعية (خاصة فى لوكسمبورج وهولندا وحتى روسيا).

لقد تولدت حالة من الظلم والمهانة فى كل أرجاء أوروبا، نتيجة الرعب الذى بثه لويس الرابع عشر.

وحتى لا يظهر ما يمكن أن يهدد سلطته المطلقة، أعلن لويس عبارته الشهيرة «أنا الدولة».

وبعد وفاة فوكيه، لم يعد يُعين وزير للمالية.

استخدم الفساد النظامى، ليحارب النبلاء والأغنياء، انطلاقًا من اعتقاده الراسخ بأن هؤلاء النبلاء وكبار الموظفين لم يكونوا سوى خدم فى قصر الملك.

لقد فرض عليهم الخضوع وتنفيذ مهام الغزو والسلب والنهب الشيطانية الشريرة لمصلحته، موظفًا وسائل الترهيب والتهويل البربرية، لدرجة تجريف الأراضى والحرق الدائم للأقاليم التى يتم غزوها.

ولم يتوقف عن استغلال أية مناسبة للغزو وزيادة ثرواته.

وقد أثار ذلك عداء ألمانيا بعد إسپانيا وهولندا وكل أوروپا ضد فرنسا. وفى النهاية، عداء انجلترا، المنافس والعدو التجارى والاستعمارى، بدءًا من المستعمرات فى كندا والجزر، حتى بناء المستعمرات فى الهند.

لقد قاد الشعب الفرنسى إلى الفقر والبؤس والشقاء، من أجل إشباع ولعه بالسلطة والثراء. ولقد استخدم لويس الرابع عشر كل الذرائع، فى سبيل إشباع ذلك التعطش الدائم للثروة والسلطة. وعمل على شراء الولاء المطلق لقادة الجيش، الذين كانوا الأداة المحورية لتنفيذ سياسته.

بدأت أوروپا فى صياغة الائتلافات والتحالفات ضد فرنسا، فوقعت العديد من الحروب.

لم ينجح كولبير الذى شغل منصب «المراقب العام للشئون المالية» فى تحقيق توازن الميزانية، نتيجة نفقات الحرب المتزايدة باستمرار، وتعدد القصور والمبانى الفاخرة التى كان يعشقها لويس الرابع عشر. وأدى هذا إلى إتخام فرنسا بالديون والركود. كان هذا الرجل كفئًا ولكنه عاش بدون مبدأ، لكى يدخل إلى خزائن فرنسا أكبر قدر ممكن من الأموال.

وزادت المكاسب التى تم جنيها، بعد توقيع «معاهدة الزنوج»، حيث تم صياغة قانون السود فى عام ١٦٨٥م، فى عهد لويس الرابع عشر، لمواجهة المجاعة الحادة التى تعرضت لها فرنسا، بهدف منح الشرعية للعبودية.

وقد حاول من جاء بعد كولبير سد العجز فى الموازنة الفرنسية؛ بسبب حروب لويس الرابع عشر، إلا أنهم فشلوا، على الرغم من السياسات المتبعة

لتحقيق هذا التوازن، من خلال السياسات النقدية الجديدة، وإعادة تقييم (تعويم) عملة لويس أو الأيكو، وفرض ضرائب جديدة، والحصول على جزء من الضرائب التى تدفعها الإقطاعيات حسب أحجامها للولايات الإقليمية والأكليروس. . لخزينة الملك.

ولقد تم اضطهاد وظلم الأقاليم التابعة، وخاصة الإلزاس والبرينس، من خلال إقحامها فى الحروب ونهب ثرواتها لتمويل العجز فى الموازنة، مما أدى إلى أن أصبحت الحياة فى كل منهما أشبه بالكارثة.

ومع اقتراب نهاية مدة ملكه، دخل لويس الرابع عشر فى مداولات ومفاوضات سياسية مع أعدائه العسكريين وحلفائه المحتملين فى لاهاى، وقدم الملايين لجنرال الائتلاف المعادى، مارلبورج، ليحاول كسبه فى جانبه.

إن «ملك الشمس» و«ملكه العظيم» يحاول أن يخفى علينا الحقيقة العميقة المتجسدة فى أفكار بيرنيس وباسكال، التى تكشف أنه حاول أن يكسب الأكليروس (رجال الدين المسيحى)، من خلال الرشاوى، من أجل أن يزيدوا من الهالة التى تحيط بالملك وتحويله إلى أسطورة بطولية يتغنى الشعب بها. وقد أكد هذه الرشوة التى قدمها إلى موليير؛ لأنه قال: «إن الشعوب تستمتع بمشاهدة العروض.. ومن هنا فنحن نمسك بأرواحهم وقلوبهم».

***

قرن الذهب الإسبانى

لقد تم طرح نفس النموذج الإلهى المقدس للشباب، محاط بأسطورة «قرن الذهب» الإسبانى.

لقد بدأ مع ظهور إمبراطورية «شارل كينت - Charles Quint»، الذى وصف بالقدسية مملكة أرضية (تغلب عليها بالصليب). وتفاخر بأن إمبراطوريته «لا تغيب عنها الشمس أبدًا».

وقد مارس سلطته مؤكدًا تفوق أمـته فى أوروبا، على اعتبار أنه منتخب من جـانب «الأمراء الناخـبين» و«بركة الـرب». ومن العدل أن نذكـر أنه: بواسطة البركة والدعم من أقـوى بنك أوروبى، بنك فوجير الذى قام بتمـويل انتخابه، قام برشوة «الأمراء الناخبين».

وتعاقد خليفـته فيليپ الثانى للحصول على ديون من بـنك فوجير ولم يقم بتسديدها مما جعل البنك يعلن إفلاسه.

لكن التـاريخ الرسمى يوضح أن هذا الجـانب لم يكن سبب عظمـة «شارل كينت - Charles Quint»، الذى بدأت مملكته فى التعاظم بعد عدة سنوات من رحلة كريستوفر كولومـبس، تحت حماية الملكة إيزابيل الكاثوليكية. لقد طلبت هذه الملكة من البـابا الإذن بإجراء التفـتيش والتـحقيـقات التـعسفـية. **فى عام ١٤٩٢م، قحط العالم بتدمير ثقافتين: الثقافـة العربية الإسلامية بعد استرداد غرناطة، والثقافات الأمريكية الهندية الكبيرة من خلال المذابح التى أبادت الهنود الحمر.**

ولقد حـدد كريستـوفر كولومـبس هدفه الأساسى، عندمـا كتب إلى الملك قائلاً: **«الذهب هو الأغلى والأثمن بين كل البضـائـع، من يملكه يستطيع أن يوفر كل ما يحتاجه العالم، بما فى ذلك وسائل إنقاذ الروح وتطهير النفس والذهاب إلى الجنة، للحصول على كل أنواع المتعة واللذة».**

إن «قرن الذهب» تاريخيّـا، يستحق أن يطلق عليه هذه التسمـية؛ لأنه عرف عمليات نهب الذهب، من خلال الخبرة الأولى للاستعمار البربرى الساعى إلى تحـقيق أقـصى مـعدلات الربـحيـة. وتوضح الأرقـام التى رصـدها كـاسـا دوكونتراتاسيون دوسڤيلا، أن أكثر من ١٩٥ ألف كيلوجرام من الذهب، و١٦ مليون كيلوجرام من الـفضة، تمت سرقتها من پيـرو، خلال الفترة من ١٥٠٣م وحتى ١٦٦٠م.

***

فيما يتعلق بدور «**التعليم**» فى المجتمعات المسماة «**ديمقراطية**»، نتتهى بمثال عن تشويه الصياغات «**التاريخية للفكر الأحادى**»، وكذلك لأسطورة «**الديمقراطية**».

من التقليدى فى كتبنا المدرسية أن تقدم اليونان فى قرن پركليز على أنها «أم الديمقراطيات». وإن ثيوسيديد قد مدح وأثنى على شخص پركليز وسياسته؛ لأنها كشفت لنا الدلالة والمعنى الحقيقى «للديمقراطية».

ولكن لم يكن فى أثينا من الأحرار الذين لهم حق الانتخاب إلا السبع!

الفنون.. تاريخ مقدس للإنسانية

يسمح الفن فى المناهج والكتب الدراسية التاريخية، بتعريف التوجه التقليدى للتعليم.

فى غالبية الأحيان، نجد أنه فى نهاية الفصل، نوعًا من الالتفاف؛ لأن الأمر ينصرف إلى معارك أو هيمنة تمارسها «الملوك الكبيرة» فى إمبراطورية استعمارية ما أو فى «ديمقراطية»، من التوابع التى يحكمها «كبار» القادة السياسيين أو العسكريين السابقين. يعكس الملخص الذى يتناول الفنون فى هذه الحقبة أوضاع المرحلة، دون تناول المراحل الرئيسية للملاحم البطولية والأسطورية الخلاقة التى تجعل من الإنسان آدميًا.

نحن، لا نقترح هنا أى شىء إلا النقيض الراديكالى: **الذى يبدأ من الفنون التى أصبحت تعكس التاريخ الأسطورى والخرافى بدرجة ما، ودائمًا ما يكون بصورة دفاعية وتبريرية.**

ويقترب الشعر الذى كتبه الفارسيان: الرومى والعطار، وكذلك ابن عربى فى إسپانيا فى القرن الثامن، من الحديث عن الأخوة، حتى بعد مرور ثلاثة قرون بعد القديس جان دو لاكروا والقديسة تريزا دو أڤيلا. لقد عملت هذه الأشعار على التعبير عن العالمية، فيما يتجاوز العظات التقليدية التى نادت بها الديانات المنزلة.

لكن هذا ليس إلا بمثل واحد.

كيف نفهم سر «المعجزة اليونانية»: حيث لا نرى سوى أسطورة الإلياذا التى مثلت منبعًا لـلأسرار والأساطير الكبيرة، التى كان الديماجـوجيون فى أثينا فى حاجة إليها.

تتـجسـد هيـمنة المال والسلطة فى أفـضل صـورها، من خـلال بلوتس دو أرستـفان، وكـذلك من خلال الحمـاس الذى زرعتـه الديمقراطية الإثـنية، فى مرحلة تاريخية كانت العنصرية فيها قوية ... فالبربرية .. صفة تم نعتها لكل الشعـوب التى لم تتـحدث اليونـانية. على النقـيض، ألا يعد دفـاع أنتيـجون البطولى عن «القوانين غير المكتوبة» سابقًا لعصره بقرون طويلة، ويرتبط بالدعوة لخلق إنسان جديد؟

***

يطمح هذا التغيير الراديكالى داخل النظام التعليمى فى الآتى:

١- كشف تناقض القيم التاريخية المختزلة أو المتناقضة، تبعًا لاحتياجات قادة النظام.

٢- تعلم الفنون غير الغربية التى تعبـر عن إبداع مستمر للإنسان، بدعم من الله.

٣- تكسيـر الحدود الهزليـة للإقليمـية الغربيـة التى تحاول أن تغذى أجيال المستقبل بأفكار هدامـة مفادها أن الغرب الاستعمارى هو المبدع الوحـيد للثقافة وكل القيم الإنسانية.

٤- فهم المهـمة الأساسية للـتعليم التى لا يقصد بهـا فقط نقل المعرفة العلـمية والفنية، لكن خضوع وتبعية هذه «الوسائل» للفكر استنادًا على غاية ومعنى حياتنا، وكذلك ربط التضحيات الشخصية المطلوبة، من خلال تحقيق الوحدة الإنسانية.

***

فى الفنون، نجد الخبرة الأساسية للسمو والتفوق، التى تسمح لنا بالفهم، حتى ولو لم نتشارك الاعتقاد فى نفس الوحى الإلهى الموجود داخل قلوب البشر.

تعتبر الفنون مقدسة؛ لأنها تصيغ المستقبل للإنسانية، وليس للهيمنة أو السيطرة أو للإمبراطوريات، والجنرالات والمستبدين، والتجار، والحروب.

إن «التاريخ» الحقيقى، إنما هو تاريخ الإبداع، الإبداع المستمر للإنسان بواسطة الإنسان. إن «التاريخ المقدس» للإنسانية يؤدى إلى ظهور فنون للمعنى المقدس للحياة.

يساعدنا الفن على إدراك الأبعاد المفقودة للإنسان.

صحيح أن هناك محاولة كبيرة لتشويه الأصالة والتفرد، أو التميز.

تحرك التجارة والمال هذه المحاولة.

إن هذه الديانة الجديدة التى لا نجرؤ أن نتفوه باسمها: **توحيد السوق**، تدفع الفنان أيًّا كان، لبيع إنتاجه فى «**سوق**» الفن.

***

تعد السينما الأمريكية النموذج الأكثر كمالاً لهذه **الثقافة المناوئة**، إذ إنها لا تهدف إلى مستقبل متجانس للإنسانية.

تهدف السينما الأمريكية، على النقيض، إلى فرض الواقع الأمريكى والرأسمالى على العالم، من خلال نظام تقدمه وتقترحه، كهدف وحيد للحياة والثراء.

يتمثل الهدف المحورى للسينما الأمريكية وموضوعيها الرئيسيين فى: **المال والعنف: دالاس وشوارزنجر.**

كوبولا، مخرج فيلم «نهاية العالم الآن»، صور لنا نوعًا من الهروب من

عالم لم تعد الحياة ممكنة فيه. وكتب «صحيح القول إنه لم يعد من المناسب أن نسمى **الأفلام الأمريكية** بالأفلام الناجمة عن الصناعة الأمريكية فى هولى وود، ولكن **«أفلام الصناعة»**؛ لأن إنتاجها يتم من جانب شركات متعددة الجنسية. ولا تعكس هذه الصناعة سوى المحور التحالفى الاستراتيجى هولى وود - وول ستريت» (لوموند، فى ١١ مايو ١٩٩٦م، مقابلة حوارية مع كوبولا).

لقد أصبحت صناعة العروض الفنية إحدى أهم وأولى الصناعات الأمريكية، التى تعطى صورة مصطنعة عن الواقع الأمريكى، لتطغى على واقع العالم نفسه.

وتحاول هذه الصناعة أن تجعلنا نعيش فى عالم افتراضى، يجعلنا نتناسى، أو على الأقل لا نعى المآسى الحقيقية للعالم.

***

اليوم، لكى نفهم بصورة أفضل هذا المظهر الخاص بانكسارنا، الذى يظهر بقساوة وبلا رحمة فى فنوننا، مثلما هو الحال فى اقتصادنا وسياستنا وإيماننا، فنحن فى احتياج إلى الله. هذا الاحتياج، تم التعبير عنه فى الفنون بصورة أكثر مباشرة وحساسية من أى ميدان أو مجال آخر.

لا يعتبر الفن رابطة إنسانية مقدسة فقط، ولكنه ضرورى أيضًا، حتى لا نختزل المعنى، حتى لا ننغلق على مفاهيم ضيقة فى تعرفنا على الله. ويساعدنا الفن فى أن نصبح أكثر وعيًا وإدراكًا بما هو إنسانى بداخلنا. ولا يشكل هذا حزمة من الوظائف الاجتماعية التى تشكلنا كبشر، لكن على النقيض، إنما يؤدى إلى إطلاق شرارة أبدية من داخلنا، لتحيى الحياة وتنيرها. وتعد المشاركة الخلاقة، المصدر غير المرئى لكل شىء، وما يجعلنى واحدًا فى الكل، دون أن يؤدى ذلك إلى تدمير الخصوصية التى تقبع بداخلى، «لكى يكون الواحد فى الكل».

هنا تكمن الرسالة المركزية ليسوع. فكل الحكم والأمثال التى أعطانا إياها، ومنها مثال البذرة التى نبتت وكبرت، توضح أن المملكة «هناك فعلاً»، على اعتبار أنها ليست جامدة، ولكن كحقيقة دائمًا متولدة «فينا وخارجنا»، وأننا نشارك فى هذا الإبداع المستمر على طريقة يسوع نفسه، عندما قال لنا: «فأجابهم يسوع: أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (إنجيل يوحنا ٥: ١٧)، أى أن العالم مفتوح أمام إمكانيات جديدة، وكل منا عليه مسئولية يجب أن يتحملها(*).

إن الرسالة التى جاءت بها كل الحكم وكل الأسرار الخفية فى هذا العالم، فى مثال للمتصوف الفارسى العطار، تحدثت عن «منطق الطير»، حيث تشير الطير إلى قدرة الله. تواجه الطير أسوأ المواقف والمعارك: (إذا شعرت بالسعادة فى مملكة هذا العالم، واكتفيت بها، فستفقد المملكة الأبدية)، وأكد العطار «أنهم فقدوا أثرهم الخاص بوجودهم نفسه... وحاولوا أن يتغلبوا على العقد الصعبة، لكن هذا لا تناسبه قبضة واهنة».

إن هذه الحكمة الإسلامية بخصوص «أن الواحد موجود فى الكل، والكل فيه»، إنما تعبير عن كل المحبين لله، هنا الإله الواحد الأحد. أيًا كانت لغة حكمه ودياناته، يعد قوة تفتح، وازدهار الحياة الكلية فى وحدتها.

تشهد كل الأساطير الكبرى التى تنعت بالقدسية والإلهية، أن الفن يعد اللغة المقدسة؛ لأن «علم اللاهوت» يعنى كل محاولة للحديث عن الله.. ولا يمكن أن تكون إلا شعرية، مثل «الرمايانا» للهندى تولسيداس، وأشعار الرومى فى فارس وابن العربى، أو القديس جان دولاكروا فى إسبانيا.

إن البحث عن معنى حياتنا التى ننسبها إلى الله، تعد بمثابة الروح لكل فرد

(*) كما جاء فى القرآن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

حـقـيـقى وكل جـمـاعـة. هاملت، ملك بدون مملكة لقـرن عـاصف بالزوابع والأعـاصـيـر، دون كـيشـوت، الفـارس النبـى الذى سكنه الروح القـدس، دوستويوفسكى ومعدميه فى تمردهم يـتساءلون حول معنى الجريمة ومعنى وجود الله. لقـد طرحوا جـمـيعـهم نفس التـساؤل المغـرق فى القلق، لكن بطريقـة أوروبية، كما هو الحال فى أيقونة الثالوث المقدس التى رسمها روبلوف.

يوضح هذا المساهمة الكبيرة التى يقـدمها الفن، للعمل الإلهى المقدس الذى يقوم به الإنسان، إذ إنه يوضح كيف يكون ويصبح الإنسان: إنسانًا وآدميًا.

ويسقط تعليمنا، ويتوه بين تلاطم النزاعـات والخصومات القديمة بين أطراف يضع كلٌّ منها شروطًا ومـتطلبات للالتحاق به ولأداء دوره فى مجـتمع إنتاجى واستهلاكى، تارة باسم العلمانية، وتارة باسم الاستثنائية المسيحية، مع استبعاد كل حكمة وديـانات العالم الثالث، حـتى يتم الانغلاق على العـرقيـة المركزية الغربية.

إن تعليـمنا المدان يتجـاهل ويترك - بدعوى مـعول «الحـداثة» - العمـالقة الذين، فى الماضى، طرحوا المشـكلة الخاصة بالإنسـان ومعناه، دون أن يعطينا أى سلاح ثقافى، خاصة للشباب ليقـاوموا ثقافة التليفزيون الذى يشبه صندوق القمامـة، حيث إن حوالى ٨٣٪ من بثه فى أوروبا، يتعلق بالبـاعة الجائلين من المتاجرين فى النفايات التى تنتجها هولى وود وأبطالها الأقوياء المزيفين.

ينطبق الأمر على المجتـمعات والأفراد.. لكى يصبحـوا تجارًا وكهنة ورجال دين. بالنسبة للنخبة، الحديث عن إله ديانة الوسائل.. يعنى الحديث عن الإله الذى يدعـو إلى الإنتـرنت، عن الإله الـذى يسـتطيع أن يكون أفـضل خـادم للرجال، بمعنى أن يترك الإنسان السؤال المحـورى حول الغايات النهائية، حول المعنى وحول الله..

وبذلك لن تتغـير حقيـقة أى شىء، حيث إننا نعيش على تصـور أن العالم والنظام الذى نعيش فيه، هما فقط المتاحان، ولا يمكن استبدالهما أو تغييرهما.

إن إرادة تحطيم هذا النظام تظهر فى سياسة الحركة الثورية، وفى الكنائس التى تبحث عن تجديد الإيمان، من خلال السمو والارتقاء، المناقض للانكفاء العقيدى.

فى الفنون، الانقطاعات الرسمية تسبق ميلاد مشروع جديد.

فى الرسم، يتم تمزيق التقليدية.

الانطباعية.. ترمى إلى تهشيم اللون.

التكعيبية.. تعنى تحطيم الشك.

التجريدية.. تعنى تحطيم الموضوع.

السريالية.. تعنى تهشيم المعنى النفعى.

لكى تكون شاعرًا فى الحياة قبل الكتابة، يجب أن تشارك فى الإبداع المستمر للعالم، من خلال تحويل حياتنا إلى تحفة شعرية.

من أجل التعبير عن فعل الله.

ولا يعنى ذلك الاعتقاد فى اللامرئى، لكن فى وجوده، وجعله مرئيًا.

فهل ننفتح نحن على هذه العدوى المعنية بالملاحم والمآثر البطولية، مثلما فعل نيردا وكازنتازاكيس وجارسيا لوركا وإيمى سيزار وإقبال والقديس جون بيرس؟.

إن الخبرة الأكثر تفوقًا وسموًا تتمثل فى خبرة الإبداع المستمر للإنسان بواسطة الإنسان، وكل البشر بصفة دائمة خلال ما نطلق عليه التاريخ، دون أن نعنى هنا الحروب أو الهيمنة التى لم تتوقف عن تدميره، لكن نقصد كل المشاريع الظافرة أو المجهضة التى كانت تسير فى اتجاه ظهور الإنسان الشامل.

إن الفنون. . هى الوحيدة التى تسمح لنا بأن نظل على قيد الحياة، من خلال الحياة فى أشكال أخرى للوجود، نستطيع خلالها أن نجسد ونؤنس مشروعنا عن الحياة من خلال حضورنا فيه، عندما نعرف كيفية القراءة للتاريخ الحقيقى للإنسانية، وكذا تاريخ الإمكانيات الإنسانية.

***

لاهوت التحرير

يُعد «لاهوت التحرير»، و«الجماعات المرجعية» أحد أهم آمالنا فى هذا الزمن.

ولا يقتصر فى حقيقته على سلوك «كنسى» يساعد الأكثر تعرضًا للظلم والجور، ولكنه يحاول أن يحلل ويقيم الآلية التى خلقت وسببت البؤس والشقاء فى العالم.

أحد أهم رواد لاهوت التحرير العظام، دوم هلدر كامارا، الذى فتح الطريق للحظة (لأنه سرعان ما أُغلق) أمام مجلس الڤاتيكان الثانى. وكتب فى عام ١٩٦٧م حول (حلزونية العنف) حيث قام بتحديد ثلاثة أنواع من العنف، متمثلة فى:

١- **العنف المؤسسى المنهاجى**: الذى يقصد به الظلم، الذى يعد الأسوأ، والسبب الرئيسى لباقى الأنواع الأخرى.

٢- **العنف الثورى العصيانى**: الذى يحدث بصورة عفوية ضد الجرائم المؤسسة المنهاجية الدائمة للأول.

٣- **العنف القمعى أو الردعى**: حيث يوجه فقط ضد النوع الثانى، لكى تبقى السلطة بصورة دائمة، وقد يصل لحد التفتيش والتحقيق التعسفى والدموى، من خلال النوع الأول.

ويرفض، دون أى التباس، نفاق الذين يمارسون العنف، بدعوى أسباب «دينية» أو تتعلق «بالحب»، أو لأسباب أخلاقية، أو سياسية تتعلق «بحماية النظام»، كذلك يرفض الذين يقتصرون فى رفضهم العنف على النوع الثانى من العنف، معتبرين إياه النوع الوحيد للعنف، إذ إنهم يغلقون عيونهم عن رؤية النوع الأول، ويشعرون بأنهم محميون، من خلال امتيازاتهم التى يوفرها النوع الثالث.

هنا تبرز أهمية التحلى بالوعى والإدراك، فالأب جوستاڤو جوتيريز فى كتابه «علم لاهوت التحرير» فى پيرو، نجح فى أن يكسب بسرعة القارة بأكملها. صدرت فى أمريكا اللاتينية - فى نفس الاتجاه الذى دافع عنه الأب جوستاڤو جوتيريز - أعمال أخرى، نذكر منها أعمال: هو جوهاسمان، وليوناردو بوف، وكوملبين، وأعمال الأسقف فراجوسو، وإنريكو دوسيل، والأب إلاكوريا، والأب سيجوندا، التى امتدت فى أمريكا اللاتينية من الجنوب نحو أمريكا الوسطى، وكذا أعمال الأب كاردنيال فى نيكاراجوا.

ولقد تبنى المجمع الأسقفى وهيراركيته الحركة فى أمريكا اللاتينية، عندما عقد فى ميدلين فى عام ١٩٦٨م، حيث كان هناك إجماع من الأكليروس ومن جانب اتحاد المتدينين والمتدينات، الذين وصل عددهم إلى ١٦٠ ألف عضو، على تبنى الحركة.

وبمجرد أن بدأت الحركة، أدانت النظام القائم بالتبعية والعبودية للطبقة البرجوازية العاملة فى مجال الأعمال والأنشطة التجارية، وتبعيتها الاقتصادية والسياسية للأوليجاركية الأمريكية التى تدير العالم.

حتى ذلك الوقت، نجحت الهيراركية الكنسية بدعوى معول «الحب المسيحى»، فى المحافظة على «استسلام وإذعان» الأعداد الغفيرة من الجماهير المضحى بها فى عمليات النهب والسلب، لصالح أصحاب الامتيازات المحليين وحماتهم الأجانب: من خلال نفيهم ومهاجمتهم «بالعنف»، النقيض «للحب» .. لكن سحق الجماهير

وقتل ملايين الأطفال، من جراء اللعبة البسيطة التى يمارسها النظام، لم تكن لها علاقة بالعنف، لكن بخضوع وبإذعان هؤلاء الذين لم يعرفوا الله بعد.

إن علم لاهوت الهيمنة، وريث التقليد الاستعمارى الأوروبى للغزاة منذ خمسة قرون، قد وجهت إليه الاتهامات من جانب «**علم لاهوت التحرير**»، ورواده العظام الذين أنكروا عمليات غزو وعبودية شعوب العالم عن طريق العنف من النوع الأول ثم الغزو: وقد تناول ذلك الأسقف بارتولوم دو لاس كاساس، والأب موتيسينوس، وبيدرو دو كوردوبا وآخرون.

***

إن هذه الأمثلة قليلة العدد، تم تغطيتها إعلاميًا - بالمعنى الحرفى للكلمة وليس المعنى المصطلحى - نتيجة القمع والردع المنهجى، وأحيانًا التعذيب والقتل الذى مارسته وكالة المخابرات الفيدرالية الأمريكية والمتواطئون معها، ضد **أى محاولة لتجديد النضال، من خلال المثال الذى أعطاه يسوع لحقيقة «الاختيار التفضيلى للفقراء»**.

ونكرر، لأن الأمر فى حاجة إلى تكرار، ولأن هذا يجب أن يمثل نقطة الانطلاق والبداية لكل تفكير حول السياسة العالمية، حيث «**نموذج التنمية الغربى الذى يكلف العالم الثالث ٣٠ مليون ضحية من المجاعة أو سوء التغذية سنويًا، بينهم ١٣ مليون ونصف مليون طفل، فى الفئة العمرية أقل من خمس سنوات (أرقام اليونيسيف). وهذا يعنى أن «إجمالى عدد المتوفين بسبب المجاعة وسوء التغذية يعادل عدد القتلى فى هيروشيما بمعدل ضحايا هيروشيما مرة كل ثلاثة أيام، بمعدل يزيد عن ١٢٠ قنبلة مثل قنبلة هيروشيما سنويًا**».

خلال ثلاثين عامًا، ستتفاقم الفجوة بين الدول الفقيرة والدول الغنية من ١ : ٣٠ مثلاً، لتصبح ١ : ١٥٠ مثلاً.

يكمن الأمل فى «الجماعات المرجعية»، و«علوم لاهوت التحرير»، حيث

إنها الوحيدة التى تستطيع أن تنجح بصورة بطولية، حتى تستطيع الإنسانية أن تبقى على قيد الحياة؛ لأنها تمنحنا **بداية الحل**.

ولم تعد «الجماعات المرجعية» و«علوم لاهوت التحرير»، قاصرة على «الكنيسة».

يسخر دوم هليدر كامارا قائلاً إنه «عندما أعطى فقيراً ليأكل، يقولون إننى قديس. وعندما أقاوم وأنكر النظام المسئول عن البؤس والشقاء، يقولون إننى شيوعى».

من الملاحظ أن الكنيسة الرومانية قد دعت المجمع الكنسى المقدس عام ١٩٦٥م، ومجمع الرهبان الرومانى فى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٤م، الذى اجتمع حول «مؤشرات على مظاهر علم لاهوت التحرير» أعلن إدانته للحركة الخاصة بلاهوت التحرير. ثم ظهر بعد شهرين فى ٧ فبراير ١٩٨٥م، فى ليما «وثيقة سانتافى»، حيث أعطى منظرو وكالة المخابرات الأمريكية وريجان أوامرهم (الاقتراح الثالث) حول: **«سياسة الولايات المتحدة الخارجية، يجب أن تبدأ فى مواجهة حركة لاهوت التحرير»**.

إن هذه السياسة التواطؤية بين الولايات المتحدة والفاتيكان، تمت الدعوة إليها وممارستها تصاعديّا، حيث أعلن المستشار الأكثر لمعانًا وبريقًا منذ الستينيات بريجنيسكى، فى جريدة «كوريير دو لاسيرا»، فى ١٠ مايو ١٩٩٢م، أنه «إذا رغبت أن تقود العالم، يجب على أمريكا أن تتبنى الرسالة القيمية للبابا وياتيلا ـ Woytila».

وبصورة أكثر رسمية، كشفت مجلة «تايم» الأمريكية أن «تحالفًا مقدسًا» قد تم التوصل إليه بين رونالد ريجان ويوحنا بولس الثانى فى يونيو ١٩٨٢م، من أجل تفكيك الكتلة الشرقية، بفضل دعم الفاتيكان فى روما وواشنطن لنقابة «التضامن» فى پولندا(*).

(*) صدرت فى أوروپا كتب كثيرة عن البابا منها: «سياسى الله»، وأحدها عن أهم عشر شخصيات غيرت القرن العشرين، ومنها البابا.

ولقد تأكدت معلومات مجلة «التايم»، من خلال الحوار الذى أجرته مجلة «پانوراما» الإيطالية مع ريجان نفسه فى ١٢ مارس ١٩٩٢م، حيث أعلن الرئيس الأسبق بصورة محددة «**أن البابا قد قدم مساعدة حاسمة لدعم حركة «تضامن»، وقد وجدت قاسمًا مشتركًا بينه وبينى، بين الولايات المتحدة والڤاتيكان، نتيجة وحدة وتجانس قيمنا**».

لقد تم الكشف عن هذا الميثاق السرى الذى وقع ١٩٨٢م، بعد مرور عشر سنوات على توقيعه، وقد كان له تأثير سياسى مزدوج.

الذى كان أكثر خطورة بالنسبة للولايات المتحدة والهيراركية الرومانية فى روما، تمثل فى علوم لاهوت التحرير التى اقترحت قراءة جديدة للإنجيل - لم تعد «مفروضة من أعلى»، تأخذ من القديس بولس حتى بوسيه، أو من كتاب تعليم الدين المسيحى «الكاتاشيزيم» الذى صيغ عام ١٩٩٢م؛ لأنها تعبر عن **علم لاهوت الهيمنة** - لكن على النقيض: قراءة تبدأ من البؤس والشقاء الذى تعانى منه الجماهير، حتى نستخلص المبادئ التى يقوم عليها «**علم لاهوت التحرير**».

لقد انطلقت هذه الحركة بصورة كبيرة منذ انعقاد مجلس الڤاتيكان الثانى، الذى عقد بدعوة من البابا يوحنا الثالث والعشرين، الذى أعطاه وحدد هدفه فى «الانفتاح على العالم»، من أجل خدمة العالم، وليس تملكه.

إن هذا النداء المشرف ليوحنا الثالث والعشرين قد مثّل دستورًا، حيث استبشر منه خيرًا كبار مفسرى الكتب الدينية فى تلك الحقبة مثل: الآباء شيتو وكارل راهنير وجيراردى وهانس كونج. أحدث هذا النداء دويًا عظيمًا، خاصة فى أمريكا اللاتينية. وعبر، بقوة فى عام ١٩٦٨م، عنه فى مؤتمر الأساقفة، فى ميدلين (بكولومبيا).

لم يقتصر تاريخ أمريكا اللاتينية الحقيقى على كونها أرضًا خصبة للتبشير المسيحى، أو قدمت ملايين الضحايا من السكان الأصليين، ولكنها كانت أيضًا

خصبة للاستغلال والنهب من جانب أوروپا، مع عشرات الملايين من ضحايا السكان الأصليين، وعشرات الملايين من الأفارقة المسترقين. وقد بارك البابا الأفعال والسلوكيات الأوروپية فى القارة، حيث قسم البابا القارة بين إسپانيا والبرتغال. وبالرغم من ذلك، فقد أعلن الآباء الأبطال الشجعان رفضهم لعمليات التنكيل والتعذيب والظلم والاضطهاد، مناوئين بذلك للكنيسة الرومانية فى الڤاتيكان التى ينتمون إليها، والتى تساند الغازين الفاتحين من إسپانيا والبرتغال. يذكر من هؤلاء الآباء البطوليين الأب مونتسينوس الذى رفض عمل اتحاد بين مالكى العبيد، والأسقف الأعلى بارتولومى دى لاس كاساس الذى دافع عن الهنود، وتجرأ ليقول **«إن البربرية قد جاءت من أوروپا»، واعتبرها «وصمة عار فى جبين المسيحية»**.

ورث هذا الموقف «علماء لاهوت التحرير» فى مقاومتهم للكنيسة الرومانية، المتحالفة والمتواطئة مع سلطات من يملكون، ليصبحوا أوفياء ليسوع المرسل بالأولوية إلى الفقراء، ضد العنف الذى تمارسه هيراركية «القديس بولس» فى روما.

اختارت الكنيسة الكاردينال راتزينجر ليصبح المتحدث الرسمى باسمها، ويفند وينقض أى مقولات تتعلق بتوجيه اتهامات إلى اتحاد المتدينين فى أمريكا اللاتينية، القائم على مبدأ: صيغ علم لاهوت الهيمنة بواسطة القديس بولس، الذى كتب **«على كل إنسان أن يكون خاضعًا للسلطات التى تمارس السلطة، لأنه لا توجد سلطة إلا من الله. كذلك، الذى يعارض السلطة ويتمرد ضد النظام المراد من قبل اللّه.. إنما يتمرد على اللّه»**. . **«إذًا لا شىء من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح. لأن ناموس روح الحيوة فى المسيح يسوع قد أعتقنى من ناموس الخطية والموت»** رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (الإصحاح ٨:١، ٢).

ويأخذ على علماء لاهوت التحرير، مساندتهم عمليات المقاومة التى يقوم بها

المظلومون ضد الظالمين الجائرين، معتمدين هنا على ما ذكره راتزينجر فى مؤلفه (الحرية المسيحية والتحرير، ص٣٢) حول القديس بولس بشأن: «التحرير .. الله وحده هو الذى يمنحنا التحرير من الخطيئة» مؤكداً على قول بولس الرسول: «لأنهم إذا كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم، لم يخضعوا لبر الله» رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (الإصحاح ١٠: ٣، ٤).

الوثيقة الثانية التى تخص سانتافى، فى ١٩٨٨م، تؤكد أن علم لاهوت التحرير يعد «عقيدة مقنعة للإيمان الدينى»، وأنها تعد أيضاً **تهديداً «للأمن القومى الأمريكى»**.

فى موسوعة «سنتيسيموس أنوس» التى صدرت فى عام ١٩٩١، اعتبر البابا يوحنا بولس الثانى أنه ضد كل الثوريين فى العالم. ورأى فى انهيار الاتحاد السوفييتى «الدليل الإيجابى للمشروع والسوق والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، والمسئوليات الناجمة عنها، وكذا الإبداع الإنسانى الحر فى قطاع الاقتصاد»!.

لا نستطيع أن نعطى تعريفاً أكثر تحديداً للرأسمالية ونتائجها الروحية التى تنجم عنها، إلا فى: **نظام توحيد السوق**.

ولن تعد الدهشة تصيبنا، عندما نرى يوحنا بولس الثانى يحتفل فى ١٩٩٢م، فى سان دومينيك بمذبحة ٦٠ مليون هندى بزعم «التبشير فى العالم الجديد»، والتحمس الشديد فى سان جاك دو كومبوستيل، من خلال تمجيد فضائل أوروبا، لكى تغطى وتخفى جرائمها الاستعمارية.

***

لقد فتحت علوم لاهوت التحرير آفاقاً جديدة بصورة راديكالية للنضال من أجل وحدة العالم الذى يعانى من التقسيم والتشرذم، والذى يعانى كذلك من التناقض الحاد فى التوجهات داخل الكنيسة المسيحية، بعد مجلس الفاتيكان الثانى، واجتماع جمعية ميدلين الذى ساهم بصورة كبيرة فى التجديد الروحى للديانات الموجودة فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، وحتى فى أوروبا.

لقد أعطت علوم لاهوت التحرير (والجماعات المرجعية التى عبّرت عنها) الحياة والديناميكية التى كانت مصدراً «لانفتاحات» الفاتيكان الثانى، التى تجسدت وأخذت صياغات محددة فى ميدلين.

وتعد الشاهد الحى على الاتحاد العميق بين الروحانية والتنظيم والعمل الجماعى، «**من أجل الحياة بطريقة مختلفة**».

ولقد أعطى الأسقف فراجوسو مثالاً على ذلك، فى ظل أسوأ الظروف تحت حكم الديكتاتورية العسكرية، والعمل فى الإقليم الأكثر معاناة للبؤس والتخلف فى البرازيل، سيرتاو، حيث نجح أن يعيش، وأن يبنى لجماعة مرجعية حياة جديدة، حسب الصورة التى حلم بها يسوع. وكان ذلك دافعًا له، لكى يفعل شيئًا مختلفًا بديلاً عن اليوتوبيا، من خلال تنظيم اجتماعى لنموذج جديد، يغلب عليه الإيمان الحر، غير المقيد بتقاليد العبودية، تجاه السلطات الدينية أو السياسية.

ويسجل مسمى «علم لاهوت التحرير» تاريخ ميلادها، عند صدمة نظريات «التنمية»، ومستقبل الدول «النامية» التى فشلت فى كل تجارب التنمية، التى حاولت تطبيقها على الطريقة الغربية (لأوروبا وأمريكا الشمالية)، حيث كان نموذج «التنمية» يرمى إلى نهب وسلب موارد وثروات دول **العالم الثالث**، من جانب الدول الغنية. وبديهى أن هذا النموذج التنموى، لا يمكن تعميمه عالميّا؛ لأنه - ببساطة- كان مؤسسًا على الاستعمار القديم، ثم الجديد فى ظل هيمنة الولايات المتحدة.

***

خلال سنوات الخمسينيات، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكنتيجة لاقتسام العالم بين كتلتين، الأولى: تقودها الولايات المتحدة، والثانية: **يقودها** الاتحاد السوفييتى، **تطور فى الغرب مفهوم سياسى دينى، يصبح بمقتضاه المؤمنون المسيحيون هم أهل الخير، ويصبح الماركسيون الملحدون هم الأشرار. وقد انتشر هذا**

المفهوم خلال فترة الحرب الباردة. وكان ظهوره لمواجهة الشيوعية. فباسم الله وإنجيل يسوع الناصرى، تنتظم الحرب المقدسة ضد كل الماركسيين الشيوعيين.

خلال سنوات الستينيات، ظهرت سلسلة من العناصر المهمة فى التوجه نحو إدخال وإدماج المسيحيين فى نضال الشعوب من أجل التحرير. هنا ظهر التصور الجديد للأب كاميليو توريس، الذى تجسد فى صورة حوار جديد مع الماركسيين على ضوء الڤاتيكان الثانى. وفى نهاية الستينيات، وخلال السنوات العشرين الأخيرة، بدأت هذه الأوساط تستهدف الإمبراطورية الأمريكية. فيليپ آجى، أحد عملاء وكالة المخابرات الفيدرالية الأمريكية، عندما بلغ سن التقاعد، نشر كتابًا بعنوان: «**صحيفة عميل سرى: عشر سنوات فى وكالة المخابرات الأمريكية**». **ظهر هذا الكتاب عام ١٩٧٥م، وأوضح فيه، كيف أن الوكالة طيلة كل هذه السنين قد اخترقت الكنيسة: كهنتها والمتدينين والعلمانيين العاملين فى الكنيسة، لكى يتوفر لديها معلومات عن هؤلاء المسيحيين النقديين، وعن المناضلين الشعبيين والقيادات السياسية التقدمية.**

ولقد أكد خبراء متخصصون فى وكالة المخابرات ما ورد بالكتاب. لقد اجتمع لاتريبونال روسل فى روما، فى يناير ١٩٧٦م، وأكد فى الصفحة الثامنة من تقريره المعنون باسم «مطامع إمپريالية داخل كنيسة أمريكا اللاتينية» : «حتى منتصف الستينيات، لم تكن الكنيسة معتبرة على أنها تمثل خطرًا بالنسبة للخطط الإمپريالية. على النقيض، كانت الكنيسة الكاثوليكية، تناوئ الشيوعية. لكن الثورة الكوبية دقت أجراس الإنذار، وساندت السياسة الإمپريالية بعض الجماعات النقابية المسيحية، التى تعارض صراحة الماركسية، والحركات التعاونية على مختلف أنماطها، وكذا تعارض الجماعات المكلفة بتحقيق تنمية العمل الاجتماعى التى أحيانًا تكون مرتبطة بالكنائس».

وتزايدت خطورة الموقف بعد مؤتمر الأساقفة فى أمريكا اللاتينية، الذى عقد فى ميدلين فى أغسطس ١٩٦٨م. وأكد المؤتمر على دعمه لكنيسة تحريرية. وقد

أرسل الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون الملياردير نيلسون روكفلر فى رحلة ملاحظة وتحرى. قدم روكفلر تقريره إلى الرئيس الأمريكى. وأكد روكفلر فى التقرير أن «الاتصالات الحديثة وتطوير التعليم، يمثلان انقلابًا فى المجتمع الذى يتمتع برابطة قوية مع الكنيسة (انظر الوثائق التمهيدية للإعداد للمؤتمر الثانى العام للأساقفة الكاثوليك الرومان فى ميدلين بكولومبيا، ١٩٦٨م)، التى تحولت إلى قوة للتغيير، والتغيير الثورى إذا اقتضى الأمر».

وأضاف روكفلر فى تقريره «**يجب أن نكون حذرين؛ لأن الكنيسة اللاتينية الرومانية تعمل على تطبيق اتفاقيات ميدلين، ويمكن أن يمثل هذا تهديدًا لمصالحنا**».

لقد أدى الملف الذى قدمه روكفلر إلى إثارة القلق فى أوساط حكومة الولايات المتحدة. وكلف مكتب البحث بوزارة الخارجية الأمريكية شركة راند لإجراء تحقيق. قامت هذه الشركة بعمل بحث، وضعت نتائجه فى تقرير (آريام ٦١٣٢ - ٢) فى أكتوبر ١٩٦٩م، حمل عنوان «التنمية المؤسسية فى أمريكا اللاتينية: التغيرات داخل الكنيسة الكاثوليكية»، (أعده مكتب البحوث الخارجية بسكرتارية الدولة، وشركة راند، سانتا مونيكا، كاليفورنيا).

وقد تناولت تقارير أخرى نقاطًا مختلفة تخص القارة. منها، التقرير الذى نشرته مجلة «بريميرا بلانا» فى بوينس أيرس. صاغ هذا التقرير عددٌ من العسكريين فى الأرجنتين المكلفين داخل دولتهم بمواجهة الحركة المسيحية. وقد حصلوا على دعم ومساندة من بعض وكلاء المخابرات الأمريكية وعسكريين برازيليين. فى إطار هذه السياسة، نشير إلى السياسة المأسوية القائمة على الردع والقمع الدموى ضد اثنين من رجال الدين الدومينيكان اللذين تم تعذيبهما: الراهب بيتو والراهب تينوت دو ألينكار. هذا الأخير لم يستطع أن يتحمل معاناة التعذيب، ففقد شخصيته وتوازنه، وانتحر فيما بعد.

نشرت وثيقة سرية أخرى فى بوليڤيا، حول خطة بانزر ضد الكنيسة التى كانت على إدراك بتورط وكالة المخابرات الأمريكية، واستقالة رئيس المخابرات

العامة الكولونيل أرابا؛ لأنه لم يرغب فى التصرف ضد النظم المرتبطة بـ «الشيوعية الدولية»، النابعة من رجال الدين الدومينيكان والأحبار اليسوعيين. وقد أكد التقرير على **«فتح ملف جديد يشمل أسماء رجال الدين والكهنة والمتدينين، حتى يتم مراقبتهم. كما أنه يجب علينا أيضًا، أن نضع مجمع الأساقفة تحت المراقبة... ولا يجب أن تنظم بعد عمليات داخل المؤسسات الدينية؛ لأنها ستكون مثارة بصورة إعلامية فجة. كما أن حالات التوقيف والقبض على المتدينين ورجال الدين، يجب أن تكون فى أماكن نائية عن المدن.. فى شوارع يسيطر عليها الصمت، أو أن تكون فى وقت متأخر جدًا من الليل»**. وعملت وكالة المخابرات الأمريكية على وضع خططها موضع التنفيذ حتى سنوات الثمانينيات. وقد استعانت الوكالة بوسائل أخرى سياسية ودينية منها: تقارير سانتافى الأول والثانى، ومعهد الدين والديمقراطية، وتقارير حول توسع الطوائف الدينية الأصولية والكنيسة الإلكترونية.

نستشعر خلف هذه الأنشطة أن هناك حالة من الخوف والخطر من **المجاعة**. وفق معنى هذه العبارة التى أطلقها رئيس الولايات المتحدة ليندون بى. چونسون، إنها ذات دلالة: لأن الجياع يمثلون عدونا الرئيسى؛ **«لأنهم يرغبون فى الاستحواذ على ما نملك»**.

يعد «علم لاهوت التحرير» ثمرة مؤتمر الڤاتيكان الثانى. حسب المنظر السلڤادورى، چون سيبروينو، لقد جعل الڤاتيكان الثانى من ميدلين أمرًا يمكن تنفيذه. فى ١١ سبتمبر، ١٩٦٢م، أكد البابا يوحنا الثالث والعشرون أن **«الكنيسة تمثل فى الدول النامية وفق ما هى عليه وما ترغب فى أن تكون عليه؛ لأن الكنيسة للجميع عامة، وأن الكنيسة للفقراء خاصة»**. وقد ذكر هذا الاختيار فى مجلس الڤاتيكان الثانى، لكن المؤتمر الثالث العام للأساقفة فى أمريكا اللاتينية احتفل بذلك فى ميدلين (كولومبيا فى عام ١٩٦٨م)، حيث أصبحت الكنيسة واعية بمشكلة تهميش القارة. فى ظل هذه الظروف، وجهت **«صرخة مظلوم إلى**

السماوات». إن الاختيار للفقراء، حسب ميدلين، ينطبق على التبشير التحريرى. إن هذا الاختيار التفضيلى للفقراء، وارتباط التضامن يقود الكنيسة إلى حل هذه المشكلات والنضال، من أجل هؤلاء **«الذين لا صوت لهم»**.

اعتبر الكاردينال سوتينسى، الاكتشاف الذى قام به مجلس الفاتيكان الثانى، الكنيسة ليست فقط سرًا خفيًا، ولكن أيضًا شعب الله. افترض حدوث «ثورة على مستوى ثورة الجياع». **يتجسد هذا الوعى الجديد فى أمريكا اللاتينية فى الجماعات المرجعية، التى تمثلها الجماعات المسيحية التى بدأت تنظم وتساعد الفقراء والقطاعات المعدومة، تؤسس هذه الجماعات المسيحية سلوكياتها على قاعدة النضال من أجل العدالة، بدءًا من الإيمان. وقد حصلوا على دعم الأساقفة فى ميدلين.**

فى البرازيل وشيلى والسلفادور ونيكاراجوا وجواتيمالا ودول أخرى، تتميز الجماعات المرجعية بسلوكها الذى يصاحبه شعب مصلوب ومعذب فى نضاله، من أجل العدالة وتغيير المجتمع، حتى لو سلكوا فى سبيل تحقيق ذلك بدائل سياسية ضرورية للتخلص من الديكتاتورية الجائرة. انطلاقًا من هذه الخبرة فى عام ١٩٦٤م، قامت مجموعة من علماء لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية بمقاومة واقع أن أمريكا اللاتينية أصبحت مستعمرة لاهوتية للشمال، والمنهاجية الأوروبية لعلم اللاهوت التى لم تكن صالحة لبيئة أمريكا اللاتينية وواقعها. وأعقب نشر عدد من النصوص وتنظيم المؤتمرات. ظهر فى نهاية الستينيات، أول شعاع حقيقى لبزوغ «علم لاهوت التحرير»، بصورة منهاجية، فى ظل دعم وتأييد الأساقفة المجتمعين فى ميدلين.

لم ينبثق «علم لاهوت التحرير» من منفعة علمية أو أكاديمية، لكن من مشاكل ذات صلة باللحم والدم، أى **«التزام إنسانى قبل أن يكون لاهوتيًا يرمى إلى تغيير العالم لجعله أفضل»**. لا يجب أن يقتصر التفكير على سلوك، لكن يجب أن يساهم أيضًا فى عملية التحرير. إذن، من الصعب أن يصبح «علم لاهوت التحرير»، مجرد علم الدراسة الأكاديمية؛ لأن الحقل الفعلى له، داخل قلوب الشعوب المظلومة والمستغلة والمقهورة.

بالإضافة إلى الأسباب الواردة فى الإنجيل، تضاف أسباب أخرى سياسية، حيث قام «علم لاهوت التحرير» بتحليل الحقبة الاستعمارية، ثم بعد ذلك حقب «التنمية»، وكذلك علم اللاهوت الأوروبى.. بصورة نقدية.

***

لا يجب أن نغفل

أعلن الرئيس الأمريكى فى عام ١٩٩٤م، «يجب علينا أن نؤسس منطقة للتبادل الحر من ألاسكا وحتى أرض النار». وأضاف وزيره: «يجب علينا أن نؤسس منطقة للتبادل الحر، من ڤانكوڤر حتى ڤالديفوستوك».

هل نغفل حتى تُصلب الإنسانية على صليب من الذهب؟

يعد هذا.. حوار القرن.

إذا أخذنا جزءًا من كلٍّ للفقراء.. فهل نسير بذلك ضد الحب الكونى الذى يتمناه المسيحيون؟

يجيب علماء لاهوت التحرير على هذا البعد الصراعى، على أنه غير مرتبط بالإنجيل؛ لأن المسيح لم يأت لكى يزرع السيوف، ولكن لكى يزرع السلام، فعلماء لاهوت التحرير يبحثون عن الحب الكونى، الذى يتحقق من خلال «التضامن مع المظلومين».

***

إن «الاختيار التفضيلى للفقراء» عند علماء لاهوت التحرير قد تأكد فى عام ١٩٦٨م فى ميدلين فى كولومبيا، إبان الاجتماع غير العادى لجميع أساقفة القارة، تحت مظلة مجلس أساقفة أمريكا اللاتينية. **وقد رفض هذا المجلس التصور القاتل عن الحياد السياسى للدين والحب، الذى كفل إبادة الهنود الحمر وعبودية السود، واليوم تقسيم العالم بين أقلية مسيطرة وأعداد غفيرة مستبعدة.**

كان «الفقر» مفهومًا نسبيّا، ويقصد إلى حد ما «البؤس والشقاء»، ويوجد حوالى ٣٣ مليون مواطن فى الولايات المتحدة «يعيشون تحت خط الفقر»، حسب أرقام الأمم المتحدة.

فى «الدول النامية» نتحدث عن عائلات تعيش بنحو خمسة دولارات يوميّا، وأخرى بدولار واحد، للحد الذى يجعلها قريبة من حياة الموت.

لكن الواقع الجديد فيما وراء هذه التقييمات الكمية يتمثل فى «الفقر» و«البطالة» التى لم تعد ناجمة عن الصدفة ولكن عن أسباب مؤسسية. ومن ثم فهى لا ترتب نتائج وتداعيات مؤقتة غير مرغوب فيها؛ لأنها تحدث نتيجة المنطق الداخلى للنظام الاقتصادى القائم على السوق.

تكشف كلمة «علم لاهوت التحرير»، أن «الدول النامية» ما هى إلا نتيجة لمنطق التنمية في دول أخرى، شكلت عصبة للقيام بنهب واستغلال موارد هذه الدول من جانب المستعمرين القدماء . إن تمهيد طريق فى اتجاه «التنمية» يتطلب أولاً التحرر من نظام الهيمنة الذى تولد.

لقد تم تجاوز مفاهيم «الفقر»، و«الاستغلال»، و «التخلف» اليوم، بمفهوم «الاستبعاد».

***

لقد أصبحوا يتسمون بالإفراط!

لقد كان دوم هيلدر كامارا على وعي بكل القوي العدوانية للحب الحقيقي. إذا كان يسوع قد قال فى موعظته «من ضربك على خدك الأيمن.. فحوّل له الآخر أيضًا»، فلم يكن ذلك لكي يكفل هيمنة الأقوى، ولكن هذا الحديث يفتح الباب أمام رؤية مستقبلية للعالم الذي تستمر فيه سلسلة العنف والعنف المضاد، وإصابتهم التبادلية بالمس الشيطاني.

فعندما نادى يسوع «أحبوا أعداءكم»، فإنه لم يكن يعني أنه بسبب الحب

نتركهم يستمرون فى تعذيب الملايين من إخواننا الذين عانوا من العبودية. ولقد أعطانا يسوع المثال على ذلك، عندما طرد الباعة والمرابين من الهيكل، وقلب موائد الصيارفة، وصرخ فيهم؛ لأنهم دنسوا الهيكل، وجعلوه مغارة للصوص «ووجد فى الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً والصيارف جلوساً. فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل. الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم. وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة، فتذكر تلاميذه أنه مكتوب غيرة بيتك أكلتنى» (إنجيل يوحنا ٢: ١٤ - ١٧)..

لقد أعطانا يسوع النموذج، من خلال بذل حياته وصلبه، من أجل النضال ضد هيمنة الطقوس السرية. ولقد كانت القراءة التقليدية للرسالة الإلهية المقدسة، محققة «من أعلى»، بواسطة السلطات، فى حين أن قراءات علماء لاهوت التحرير تصدر «من أسفل»، بمعنى أنها تبدأ من المستبعدين ومن يعملون ويعانون بالنسبة لهؤلاء، يعد المستقبل الأمل الوحيد فى القيامة، بمعنى العبور من حالة الموت إلى حالة الحياة الحقيقية: إلى حياة ذات معنى.

إن التمييز الخاطئ بين الخطط الخاصة بالتاريخ، يجعل الإنجيل فى خدمة الأقوياء.

إن الإيمان بيسوع يحمل معنى ودلالة، وجوهر الأمر يتجسد فى عمل وسلوك فى إطار طريقة للحياة الشخصية والاجتماعية والكنسية والثقافية والكونية.

فقط من خلال المشاركة فى قيامة الملكوت(*) تتوقف الديانة عن أن تكون أفيوناً للشعوب. ويصبح الإيمان طريقاً للمستقبل بوجه إنسانى، أى إلهى مقدس.

تتمثل أحد أهم هذه المظاهر الإبداعية لعلم لاهوت التحرير، فى وضع نهاية

(*) أى الحياة طبقاً للمنهاج الإلهى.

للاستعمار الديني لعلم لاهوت أصبح كما لو كان إنجازاً للتاريخ اليهودى، عندما أصبح أوروبيّا عبر الفلسفة اليونانية، التى نظمت النموذج الإمبريالى الرومانى. لم يستطع باقى العالم أن يستقبل الرسالة التى ظلت حبيسة فى هذه الثقافة. ويبقى السؤال: هل نقبل مملكة الله؟ وهل تريدون المراهنة بحياتكم؟

أوضح أنريكو دوسل، الذى كتب عن تاريخ الكنيسة المسيحية فى أمريكا اللاتينية (كما هو الحال فى أفريقيا وآسيا)، أنها كانت «ذيلاً لتاريخ المهام الاستعمارية».

وتمثل جهود علماء لاهوت التحرير تلخيصًا لثلاث قضايا أصلية، أعيد اكتشافها لعلاقتها بالإيمان:

١- رفضوا تنحى الأكليروس المعلن عن يسوع الفقير المحرر، للمسيح الملك القوى المسيطر. وبعثوا «الاختيار التفضيلى للفقراء» (أى ما يربو من ثلثى العالم، العالم غير الغربى خاصة)، بكلمة واحدة حقيقية وملموسة وواقعية تخص.. الحب.

٢- تذكروا البعد الأصولى ليسوع: من خلال نقده للقوى، إذ ينصرف الأمر إلى كبار الكهنة والحاخامات فى الهيراركية اليهودية، أو المحتلين الرومان الذين تحالفوا معهم. عندما عشنا فى العالم المعاصر، لم يعد هذا الإيمان أفيونًا، لكن «خميرة» للمقاومة، ضد الظلم والجور، وكل أشكال القمع والاضطهاد (الخاصة بالتبعية والبؤس والشقاء واغتراب الأرواح، نتيجة نظام توحيد السوق).

٣- عملوا على تبنى قراءة جديدة للكتب المقدسة، مشيرين إلى: ليس إلى المسيح الملك والمنقذ «من أعلى»، لكن إلى ممارسات يسوع التى قادته للصلب. موت لم يكن مكتوبًا من جانب قوة «دينية»، لكنه موت مسجل فى التاريخ، فى تاريخ النضال ضد الأقوياء وقمعهم وجورهم واضطهادهم المادى والروحى، الذى يمارسونه ضد الضعفاء والفقراء.

تحتاج اليوم كل الديانات إلى نوع من الاستيقاظ والإحياء، من خلال قراءة جديدة للكتب «المقدسة»، لتواجه مشكلات كل يوم، مثلما فعل غاندى، وجواكيم دو فلور، أو الأب بون هوفير فى قراءته للإنجيل، أو مثل محمد إقبال فى قراءته للقرآن.

إن هذا، هو ما نحتاج إليه اليوم، لا إلى عولمة إمپريالية للسوق، لكن إلى اتحاد سيمفونى للخبرات الإنسانية، التى تحمل كل شعب للإسهام فى ثقافته وتاريخه.

الحضور الكونى للقداسة

إن الاعتراف بقداسة الحياة الروحية لكل البشر، أيّا كانت انتماءاتهم العرقية أو الثقافية، تعد موردًا ثمينًا للغاية لعلوم لاهوت التحرير.

لقد استهزأوا من السكان الأصليين الذين عاشوا لفترة طويلة حياة من التطور الروحى، حيث رفضوا هذا التطور الروحى ولم يعترفوا به، وحاولوا تدميره، خاصة فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا.

وفى عام ١٩٧٧م، فى ساحل العاج (كوت ديڤوار)، فى ظل رئاسة أسقف أبيدجان، يوجا، عقد مؤتمر لعلماء لاهوت التحرير المسيحيين فى أفريقيا السوداء، تحت عنوان: «**حضارة سوداء وكنيسة كاثوليكية**».

ذكر الأب چان مارك إيلا باسم الكونية والعالمية المسيحية أن «**الثقافة الصهيونية المتوسطية التى سارت حتى المسيحية، لا تعد إلا ثقافة بين ثقافات أخرى... ولا تعد الكاثوليكية معبدًا للرومان...**».

هذه الإرادة التى قاومت فرض الإيمان كما لو كان استعمارًا، ولكى تجعل الثقافة الغربية نسبية، كانت ترمى إلى إنقاذ القيم العالمية للمسيحية. وقد عبر عن ذلك بقوة كتاب الأب اليسوعى هيجبا من الكاميرون، بعنوان «**تحرير كنائس تحت الحماية**». وذكر فيه أن «**المسيحية ليست ديانة غربية، لكن ديانة شرقية، يحتكرها الغرب الذى فرض عليها مسحة لا تمحى من فلسفته وقانونه وثقافته، يفرضها من الآن فصاعدًا على الشعوب الأخرى فى العالم. ويجب علينا أيضًا أن نضفى على المسيحية بصمتنا، التى يجب أن لا تمحى هى الأخرى**».

يستنتج الأب أوسانا من إعلانات وتصاريح الأب دوا، أن «نحن الوارثون الشرعيون للديانات الأفريقية التقليدية، الذين أعدنا وهيأنا الإنسان الأفريقى، حتى لا يكون على غير ما هو عليه، للارتباط بيسوع المسيح».

أى أن هذه الديانات التقليدية كان لها دور مقارن بالدور الذى لعبه العهد القديم، قبل مجىء المسيحية.

فى واحدة من أقدم الروحانيات، فى الهند، نجد أن علم اللاهوت فى سبيله لأن يخرج من الظلمة.

منذ عدة سنوات وضع علماء اللاهوت الهنود أسس علم لاهوت، يقوم على التفكير وخبرة الإيمان المعاش، فى سياق الدولة التى يعيشون فيها.

فى ١٢ مارس ١٩٩٢م، فى هونج كونج، نظم مؤتمر شارك فيه علماء لاهوت جاءوا من مناطق مختلفة من آسيا لمناقشة وثيقة نقدية حول موضوع: «مستقبل الفكر الاجتماعى المسيحى»، وقعت من جانب كل المشاركين. فى هذا النص، يرفض وينكر علماء اللاهوت سمة الهيمنة الأوروبية على التعليم الاجتماعى للكنيسة، التى لم تعترف بمساهمات مؤتمرات الأساقفة الإقليمية، التى نادت بخصوصية الكنائس المحلية.

وقد حاول بطريقة إبداعية قسس من آسيا وضع التعليم الكاثوليكى فى علاقة مع الصعوبات التى يطرحها الموقف الآسيوى. لكن لسوء الطالع، جاءت حملة تبشيرية من روما مهمتها هدم ما أنجز، من خلال مطمعها للتبشير فى آسيا.

وقد أعلن عالم اللاهوت الهندى فيلكس ويلفرد فى هذا الشأن أن «هذا الوفد قد جاء لمهمة تبشيرية تابعة للڤاتيكان، أسلوبها البالى ليس إلا مجرد ظاهرة عارضة، وأن اتحاد مؤتمرات الأساقفة سيستمر فى تتبع المستقبل وفق الخط الذى رسمته وثائق هذه المؤتمرات، والتى ستساهم فى ظهور صور جديدة ليسوع تتناسب مع العملاق الآسيوى».

إن إرادة إعادة اكتشاف قداسة الحضارات والثقافة، تعد أحد الوعود الخصبة للمستقبل.

***

إن إدانة الكنيسة الرومانية لـ «علماء لاهوت التحرير» فى عامى ١٩٨٤م و١٩٨٦م، لا تشكل سوى مظهر من مظاهر السياسة المضادة لثورة الانفتاح على العالم التى خاضها مجلس الفاتيكان الثانى، وعلى حلم البابا يوحنا الثالث والعشرين، الذى عمل بمساعدة أكبر علماء اللاهوت الكاثوليك فى وقته، مثل الأب الفرنسى الدومينيكانى شينو، والأب كارل راهنر، وبعض الآخرين الذين سعوا إلى دستور أكثر جسارة وجرأة للمجلس، أطلقوا عليه «بهجة ورجاء».

لقد أرادوا كنيسة لم تعد تبحث عن الهيمنة والسيطرة على العالم، ولكن خدمة هذا العالم.

إن اصطياد علماء لاهوت التحرير والأوفياء لمعلمهم يسوع، قد امتد لتتبع أبحاثهم وإصداراتهم. فى عام ١٩٨٤م، فى إسپانيا استبعد الأب ميجيل لومى من إدارة الجريدة الأسبوعية «ڤيتا نوفا - الحياة الجديدة». وفى عام ١٩٨٩م، تم فصل الأب بول فالاديه من وظائفه كمدير لمجلة «الدراسات». وكان أول من عانى من هذه الضربة، عالم اللاهوت الفرنسى الدومينيكانى چان ماريس يوهيد، حيث منع من حق الكتابة، بعد طباعة كتابه «عندما أقول الله» (طباعة بلون ١٩٧٧م).

ثم استبعد من تعليم علم اللاهوت هانز كونج، فى ١٥ديسمبر ١٩٧٩م .

بعد ذلك، بإيعاز من يوحنا بولس الثانى، لاقى نفس المصير عالم اللاهوت الفلامنكى إدوارد شلبيك، بسبب كتابه: «يسوع: خبرة فى علم دراسة المسيحية».

وقد فرض السكوت والصمت على الفرنسيسكانى ليوناردو بوف، أحد علماء لاهوت التحرير، الذى كتب «حاولت أن أفسر الإنجيل، لمواجهة الظلم الاجتماعى». أدين فى عام ١٩٨٥م، من جانب الكرسى الرسولى المقدس فى روما، تمت إقالته فى عام ١٩٩٢م من مجلة «ڤوسس»، حيث تم تضييق الخناق عليه، ليخرج من الكنيسة، لكى «يبقى وفيًا ليسوع».

فى مدينة كومبوستول، فى نوڤمبر ١٩٨٢م، أكد يوحنا بولس الثانى بوضوح عن نفسه، عندما دفع أوروپا لكى تقوم بدورها «التبشيرى»، أو بمعنى آخر الاستعمارى فى العالم أجمع:

«أنا، يوحنا بولس، خليفة بطرس على كرسى روما، كرسى المسيح الذى أراده أن يكون فى أوروپا التى أحبها؛ بسبب جهودها التى بذلتها من أجل نشر المسيحية عبر العالم... وأطلق نحوك.. يا أوروپا القديمة.. صرخة عظيمة للحب.. لتجدى نفسك.. ولتكونى أنت ذاتك.. وتعيدى إيقاظ قيمك الأصلية، التى أعادت لنا تاريخ مجدك، وليبارك الله وجودك فى القارات الأخرى».

وتعد أوروپا.. قبل كل شىء.. حتى الكنيسة ... مع أنه «خارج الكنيسة لن يوجد سلام»، كما قال فى الكاتاشيزم: (كتاب تعليم المسيحية) عام ١٩٩٢م.

وبهذا تصبح خطة «إعادة غزو» أوروپا للعالم، ذات موضوع وهدف تدافع عنه.

***

إن التمويل الثنائى من جانب وكالة المخابرات الأمريكية والڤاتيكان لحركة التضامن البولندية التى قادها ليخ ڤاونسا فى عام ١٩٨٤م، قد شكّل «المؤسسة الوطنية للديمقراطية» للدفاع عن «الحرية». فى ٢٧ نوڤمبر ١٩٨٥م، تم تمويلها بنسبة ١٠٠٪ من الأموال العامة، تحت رقابة سكرتارية الدولة ومجلس الأمن القومى المكلف بتمويل النقابات المناوئة للشيوعية فى أوروپا. وقد لعب الڤاتيكان دورًا وسيطًا بين «الاتحاد الوطنى للجامعات» ونقابة التضامن، مثلما

وفرت وكالة المخابرات التمويل. وظهرت في ألمانيا حركة «تحيا ألمانيا»، وفي إيطاليا حركة «اتحاد وتحرير» التي أعلنت عن «الكاثوليكية الجديدة». وكانت كلها بمثابة أعضاء في الكاثوليكية الأمريكية، ٢٨ نوفمبر ١٩٨٦م.

بعد صدمة مؤتمر بوبلا في عام ١٩٧٩م، حيث أعلنوا عن الأخطار المترتبة على إعادة قراءة الإنجيل، وأعلنوا «**أن أول نجاح ليوحنا بولس الثاني، يعد في اجتماعه مع بعض «خبراء» الحزب الجمهوري، في سانتافي، ليطالب السياسة الخارجية الأمريكية، بمواجهة علماء لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية**».

في ٣ سبتمبر ١٩٨٤م، ندد الكاردينال راتزينجر «بانحرافات علم لاهوت التحرير». وفي يناير ١٩٩٠م، أعلن يوحنا بولس الثاني أن «**الله انتصر في أمريكا اللاتينية**»، (انتصر الله بمساعدة وكالة المخابرات الأمريكية!). في عام ١٩٨٤م، فيرنون والترس، الذراع الأيمن لمدير وكالة المخابرات، أشار إلى «**التوازي بين الاستراتيجية الأمريكية والإصلاح الكنسي الراهن**». كما كتب الأب اليسوعي الأورجواني لويز بيريز أجويلار في «شهادة مسيحي»، في ٦ فبراير ١٩٨٩م، عن الاتفاق المبرم بين الولايات المتحدة والكرسي الرسولي، ليمارسا سلطتهما معًا، من أجل مواجهة حركة لاهوت التحرير، ووقف تطويرها ونموها.

هذا التحالف غير الطبيعي نجم عنه تداعيات دموية. في ٢٣ مارس ١٩٨٠م، ندد الأسقف روميرو، أسقف سان سلفادور بسلوكيات «سرايا الموت» ونضال «الكونترا» ضد السندانستا في نيكاراجوا. وقال: «أوقفوا المذابح!» وفي اليوم التالي ٢٤ مارس، تم اغتياله في وسط القداس الكنسي.

فيما بعد، تم اغتيال ستة آباء يسوعيين (من جامعة سان سلفادور)، بصورة بربرية في ليلة ١٦ نوفمبر ١٩٨٩م، بواسطة أحد جنود الكوماندوز التابعة لـ «سرايا الموت».

ولم يبذل الڤاتيكان أى جهد لرفع السخط والاستياء، من جراء الجرائم التى ارتكبت فى العالم أجمع، بمساعدة وكالة المخابرات الأمريكية.

على النقيض، طالب البابا، الأب اليسوعى فرناندو كاردينال بالاستقالة من وظائفه من وزارة التعليم الوطنى فى نيكاراجوا، التى تحكمها حركة السندانستا، بعد أن نجح الأب فى تحقيق إنجازات عديدة فى مجال محو الأمية، مع خدمات أخرى.

ونجح فى النهاية قادة أمريكا الشمالية الذين دخلوا فى معركة اقتصادية وعسكرية ضد حكومة نيكاراجوا فى إلحاق الهزيمة بها. وقد حصل هؤلاء القادة على مساعدة الأحبار من الأساقفة الإقطاعيين المناوئين للثورة، وخدام سياسة الڤاتيكان مثل أسقف مانوجوا، الأسقف أوباندوا.

لعب نفس «التحالف المقدس» نفس الدور المشابه فى هايتى، لكن هذه المرة ضد الأب أريستيد، من أنصار علماء لاهوت التحرير.

وسعى التحالف التواطؤى بين قادة الولايات المتحدة والڤاتيكان إلى استبعاده، باعتباره أحد أهم وأكبر آمال القرن الواحد والعشرين بين علماء لاهوت التحرير، ليساعد البشر على الهروب من الانتحار الكوكبى، الذى حكمت به «العولمة» على الكون.

***

اليوم، الكنيسة فى الأرجنتين «تطلب الغفران» عن صمتها وقت حدوث المذابح والتعذيب، خلال الحكم الديكتاتورى العسكرى. إن الأمر لا يقتصر على هندوراس وسان سلڤادور ونيكاراجوا، التى يجب أن تعلن عن ندمها صراحة أمام الجماهير، عن الظلم والاغتيالات التى قامت بها «سرايا الموت» المدعومة والمسلحة من جانب الولايات المتحدة. لكن الكنيسة الرومانية بأكملها، على لسان يوحنا بولس الثانى التى تحمست بشدة «لوجود أوروبا فى القارات الأخرى».

اليوم، يستطيع أنصار الأسقف كاساس وعلماء لاهوت التحرير - إذا استطعنا أن نساعدهم فى معركتهم - أن ينتصروا، متذكرين رسالة يسوع، **الذى أنقذنا من كل الأصوليين المغلقين ومن عبادة الأوثان (الأصنام) المتمثلة فى عبادة المال، الذى اختبأ تحت عباءة تسمى «العولمة».**

***

حتى القرن السادس عشر، اعتبرنا فى العالم اليهودى المسيحى، أن التوراة قد كتبها موسى النبى كلمة. . كلمة.

ويقول كتاب «الكاتاشيزم» (تعليم الدين المسيحى) الصادر فى ١٩٩٢م (ص٣٥) إن الله هو مؤلف الكتب المقدسة و«يبجل المسيحيون العهد القديم، ككلام حقيقى لله» (ص٣٩).

عانى ويعانى الإسلام من نفس نظام الحكم المطلق اليوم، وحتى يصبح على ما كان عليه خلال الحقبة التى ظهر فيها نبيه وانتصاراته ووصوله إلى أعلى قمة فى المدار العالمى(*)، حيث حدث نوع من الارتباط بين معلم أوروبا والثقافات الكبيرة فى الشرق. يحتاج الإسلام إلى قراءة جديدة «من أسفل»، أى قراءة من وجهة نظر المظلومين المستبعدين المضطهدين، بحيث لا يتجمد الأمر على حماية «الوضع القائم» والحفاظ عليه، وإنما إلى مستقبل يملأه الأمل والإبداع.

يحتاج الإسلام، مثل المسيحية، اليوم إلى «علم لاهوت التحرير»(**). ويحتاج العالم أجمع إلى هذا الاستيقاظ المزدوج للمسيحية والإسلام وكل البشر المؤمنين، حتى يمكنهم بناء وحدة روحية واقتصادية على حد سواء للعالم، باسم الإيمان المشترك، تدعمه الروحانيات الكبيرة فى آسيا، مثل الطاوية التى نادت بأن «يكون الواحد فى الكل».

(*) يقصد الإسلام فى الأندلس.

(**) وبالمصطلح الإسلامى علم عقيدة التحرير.

فهرس الموضوعات

الموضوع | **الصفحة**

قامت حرب الأفيون ضد الصين، وتعد تلك الحرب إحدى صور البربرية الاستعمارية، حيث حاول الغرب فرض تفوقه على الحضارات الشرقية، ومنها الحضارة الصينية.

تشمل حرب الأفيون ضد الصين حربين: نشبت الأولى خلال الفترة من ١٨٣٩ـ١٨٤٢م وأعقب ذلك توقيع معاهدة نانكين. أما الحرب الثانية ضد الصين فكانت من ١٨٥٨ـ١٨٦٠م.

تعود جذور **الحرب الأولى** إلى عام ١٧٩٣م....

وكان بعض التجار الإنجليز يصلون إلى الميناء الصينى المفتوح لهم فى كانتون، يشترون من هناك الشاى والحرير والبورسلين والفضة ومعادن أخرى، وكان عليهم أن يجدوا وسائل جديدة بجانب النقود لتسوية معاملاتهم مع التجار الصينيين، ولتحقيق أعلى ربح وأقل تكلفة، تفتق ذهنهم عن وسيلة شيطانية، ألا وهى تصدير الأفيون إلى الصين وتسويقه هناك....

وقد دعى ذلك إلى قيام الإمبراطور الصينى فى عام ١٨٣٩م بإصدار قرار بتحريم الأفيون، ونص القرار على الحكم بالإعدام على من يتعاطى أو يتاجر فى الأفيون....

ووجد ممثل الحكومة الإنجليزية فى الصين أن فى ذلك تهديدًا للتجارة التى يرتزق منها الإنجليز، وطلب من الحكومة فى لندن التدخل العسكرى، وبالفعل بدأت انجلترا فى غزو الصين خلال موقعة «تشوين. بى».

أما حرب الأفيون الثانية ضد الصين فكانت بدايتها أنه نتيجة لتوقيع الصين لبعض المعاهدات الجائرة، فقد تعرضت لظروف اقتصادية مترديه لعدة سنوات، وكان جيل الشباب من الصينيين ينظر لهذه المعاهدات على أنها استعمارية ظالمة، ومع استمرار تهريب شحنات الأفيون إلى الصين بواسطة بعض البحارة الإنجليز، قام العديد من الثائرين بتنظيم صفوفهم، وتوجيه ضربات موجعة ضد البحارة الإنجليز، واتخذت الحكومة الصينية فى بكين موقفًا متشددًا للدفاع عن كرامتها الوطنية، اعتبر القنصل الإنجليزى فى الصين أن ذلك إهانة للسيادة البريطانية، فكانت الحرب الثانية ضد الصين بسبب الأفيون.

وفى هذه الحرب تدخلت فرنسا مع بريطانيا ضد الصين، وساعد فى ذلك الدعم الذى كان يقدمه بعض الروس والأمريكيين.

(ملخص دراسة لـ «إدواردو راموس» حول حرب الأفيون الأولى والثانية ضد الصين)

هذا الكتاب

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، بدأ الغرب.. (الولايات المتحدة وبريطانيا وحلف الأطنطي).. وإسرائيل والصهيونية العالمية حملة تشهير عالمية متعددة المستويات والمجالات والأساليب ضد الإسلام والمسلمين باعتبارهم العدو الجديد للحضارة الغربية.. بالطبع كنا - شعوبًا وحكامًا - فى غفلة تامة عن ذلك..

واليوم بلغت الحملة مبلغها عسكريًا وسياسيًا وثقافيًا.. وكل ما نفعله الآن محاولات متقطعة لنفى الإرهاب عن الإسلام.. مع استغلال بعض حكومات الشرق الأوسط تلك الحملة العالمية لزيادة القمع والبطش ضد المعارضة بزعم محاربة الإرهاب.

و/أو مساندة الحملة الغربية على الإرهاب.. مع أن التعريف الأمريكي للإرهاب - كما بيّن تشومسكى نصه عدة مرات فى عدة كتب مثل "أوهام الشرق الأوسط" - "السيطرة على الإعلام" - "9/11".. ينطبق تمام الانطباق على كل من السياسة الخارجية الأمريكية والإسرائيلية. ولكن لانجرؤ حتى على التفوه بذلك.

فى هذا الكتاب يستعرض جارودى - وهو فى العقد العاشر من عمره. ويعيش فى باريس - تاريخ الإرهاب الغربي.. ويستخرج الأسس التى قام عليها الإرهاب.. وإنكار الآخر واستعباده. واستئصاله إذا لزم الأمر.



الغلاف: محمد